Book Fav
الكتاب المفضل
رواية
FAV-BOOK.COM
زمردة
يمنى حسني

رواية

زمردة

Fav-book.com

بهنى حسني

عصير الكتب

إهداء

إلى السيدة الجميلة التي وُهِبت إياها، وكان فضل الله علي بأن جعلها والدتي، وإلى السيدة الرائعة التي تجاوزت معي عثرات الحياة التي مررت بها، وإلى اليد التي تمسكني حتى إن سقطت لا أرتطم بالأرض، أهديك روايتي الأولى.

إلى أمي السيدة/ تغريد وإلى صديقي الرجل الذي أحببني وأحببته منذ أن خلقت، إلى والدي السيد/ حسني....

{ زغفري }

(تمنيت في تلك اللحظة لو أنها
ضمتني، فدفنت روحي بداخلها،
علها تنبت روحًا جديدة تليق بها)

(أرض زمردة)

(١)

اليوم الرابع والعشرون من تشرين الثاني مولدي، مر على خلقي خمسة أشهر واثنان وثلاثون عامًا، نُخلَق قبل أن نُولد وتبدو أن هذه دلالة على أن الحياة لا تبدأ على الأرض، بل تبدأ بداخل من أحبونا، ثم تظهر على الأرض، لذلك إن أردت أن تحيا ابحث عن من ستخلق بداخله، فنحن الرجال ننبت من أرض ونثمر في أخرى، كالبذور تمامًا، فكان لزامًا أن أنتمي إلى أرض زمردة.

❦ ❦ ❦

الليلة باردة، أرحل مع القافلة إلى تميم، أفكر بهند وأشتاقها، أشعر أنه حان وقت اجتماعنا، أتعبني فراقها، وتمزق فؤادي حنينًا لها، هزني يوم رحيلي وقوفها، قست عليَّ عيناها يومها، مع أن قلبي كان بها يتمسك.

❦ ❦ ❦

ولدت بتميم، ويقال إن بتميم أناس غرباء، في بداية الأمر لم أصدق ليس لأنها لم تكن الحقيقة، أنا لا أعلم، بل لأنني أردت عدم تصديق ذلك، كنت خائفًا، يقال أن عامرًا صهري يسمع الأصوات الخفية التي يُحدِثُ بها الإنسان نفسه، ولكن زاهرة أخبرتني أن هذا غير صحيح، أسرت لي بأنه يسمع صوت أرواحهم، يسمع صراخها وبكاءها، تقول أن بتميم الكثير من الأرواح المعذبة، حتى إنني رأيت منصورًا صديقي يخبئ عينه الثالثة خلف وشاح ملفوف حول رقبته، كنا صغارًا نلعب ونتخفى، كان لا يعثر على أحد منا، غالبًا كان منهزمًا، قد يكون لأنه يرى باتجاهين متعاكسين، أمامي وخلفي، قد تكون رؤيته مشتتة، وهنا تنبهت أن عيوننا تنظر إلى الأمام، لا مجال للعودة إلى الخلف مطلقًا، أو ربما لأنه يخاف أن يُكشف سره، فتمادى في إخفائه، ليس هم فقط، يوجد الكثير منهم يتخفون، يستترون.

في الثامن عشر من آذار أتت هند تختار أقمشةً من أقمشتي، زحزحت الوشاح قليلًا وكانت هذه القلة كفيلة بأن ينشغل قلبي بها، وكلما نظرت إلى قطعة قماش أعجبتني اقتنتها، كنت أنتظر قدومها، بل أحببت مجيئها، قررت أن أحدثها فور مجيئها، بعد أن غابت عني شهرًا كاملًا، حتى ظننت أني ضيعتها، وأقسمت ألا أدعها، كلما ظننت أن عهدها قد ينقضي، كانت هذه الفكرة تؤرق نومتي، وتفسد علي مفرحتي، بل لم تكن لي مفرحة بعد غيابها، وذهبتُ إلى زاهرة علها تطمئنني.

كانت زاهرة وجهتي وسبب عودتي من أسفاري حتى أُجَالِسُها، وكأنها نقطة انطلاقي وعودتي ما إن اندلع الشوق بداخلي حتى ركبت دابتي وأنهيت رحلتي وعدت حيث تسكن زاهرة.

- زاهرة، فكرت كثيرًا، لماذا أطلق علي زغفري وأطلق عليك زاهرة ولكن دون جدوى؟

نظرت إلي نظرة المفكر، ويبدو أنها لم تعثر على إجابة، فانصرفت لما كانت تفعله، ثم تجاهلت سؤالي الأول وطرحت عليها آخر:

- هل تذكرين ليلة وفاة والدتنا؟

- كنا صغارًا -وصمتت قليلًا- هل تشتاق إليها يا زغفري؟

- لم أفتقد حنان أمي، أنا لا أعرفه وعدم معرفتك للأشياء لا تبعث بداخلك الحنين إليها.

- كان سؤالي هل تفتقدها، بشكل مجمل، لم أختص صفة محددة.

فسألتها:

- هل نبحث عن الأشياء التي لا نعرفها أم يزداد بحثنا عن الأشياء التي رحلت عنا؟!

- بل نبحث عن ما نفتقده يا زغفري.

قاطعت الصمت الذي وقع بيننا:

- جلبت الحرير الذي كانت تريده السيدة الشابة ذات الوشاح المطرز بوردة بالجهة اليسرى، أتعرفينها؟

- بالطبع أعرفها، غالبية السيدات يشترين منك الحرير، ومعظم فتيات تميم يرتدين الوشاح المطرز، ولكنك تستطيع تمييزها رغم أن وجهها مخبأ.

غيرت جلستي واستدرت إليها وسألتها وكأنها تملك جوابًا، بالرغم من يقيني عدم معرفة زاهرة لها، ولكني تمنيت معجزةً ما كانت بحادثة، وأعدت سؤالي بتلهف:

- أتعرفينها؟

- لا يا زغفري، لا أعرفها.

رغم علمي بجهلها لها، أردت أملًا أتعلق به، شعرت بالإحباط، لكن النبوءات كانت تراودني ما حدث لم يكن صدفة، لم تأت النهاية بعد، فأغمضت عيني، ووضعت يدي على أذني، وهدأت من أنفاسي حتى أستمع إلى فؤادي، فعليك حين تستمع إلى قلبك أن تنعزل عن العالم، قلبك صادق، والعالم مليء بالأكاذيب، الماء المالح والماء العذب لا يمتزجان.

قاطع صفوان صمتي:

- ماذا أخبرك قلبك يا زغفري؟

- يقول أن شيئًا ما سيحدث، يؤكد لي ذلك يا صفوان،

- إذًا دعنا ننتظر.

لم يمض يومان حتى عادت هند، وبمجرد أن رأيتها في تلك اللحظة سرت الروح في جسدي، ثم وقفت حائرًا أمامها وأتعجب من كلماتي التي تتنحى عني، والتي كانت تترتب قبل مجيئها:

- سيدتي هل أستطيع مساعدتك، أحريرًا تريدين أم جوتًا ترتدين؟

ضحكت بصوت منخفض، فأذابت قلبي:

- أرني ما عندك سيد زغفري.

توقفت قليلًا، التفت يسارًا ويمينًا، ثم أشرت إلى قطعة من القطن أحببتها أنا، وحين همت بالرحيل، أبدلت قطعة أخرى بقطعتها، حتى تأتي مرة أخرى تصلح خطأ مقترفًا من التاجر، بل أردت تحقيق مغنمة أكثر بعد تلك الغيبة.

- سيدة حسناء.

- أُدعى هند يا سيدي، أشكرك على أقمشتك الرائعة بعد غيابك أشهر عن تميم.

وقفت صامتًا، لم تكن المعلومة الأولى التي تخبرني بها عني، هي تعرف أني زغفري، ولم تكن نساء تميم كلهن يعلمن ذلك، أرتحل كثيرًا إلى العراق والشام والهند حتى أحصل على الخامات، لم تكن رحلاتي لاكتساب المال والبضائع فقط، بل كانت لاكتشاف العالم، وتعلم اللهجات، واكتساب الخبرات، ولكني لم أحصل من خلالها على أثمن من صديقي صفوان، الذي أعهد إليه تجارتي حين أرتحل مع القوافل.

وما إن رحلت، أخذت أنظر إلى الشمس علها تغرب فأذهب إلى زاهرة، أعتقد أن الوقت توقف تمامًا، فناديت صفوان:

- انتهى اليوم، دعنا نلملم الأقمشة وننطلق.

نظر إلي مبتسمًا:

- بل ظهر فجرك يا زغفري، امض أنت.

رُحتُ أحفر على خاتم الياقوتي الذي صنعته لهند هاءها، وانطلقت إلى زاهرة وطرقت بابها، ولما فتح عامر:

- تأخرت كثيرًا يا عامر، كدت أن أنصرف.

- هل تأخرت كثيرًا يا زغفري؟

- بضعة ثوانٍ.

فاحتدت نبرةُ عامر بقوله:

- لا تطرق الأبواب المغلقة، انصرف، لن تُفتح.

فقلت له:

- كل البيوت إن أردت ولوجها عليك أن تطرق بابها.

فقال عامر:

- لا، قلوب النساء بيوت تعرف ساكنيها، تفتح إن مررت بها، لا تطرق قلب امرأة أبدًا.

- هل أخبرتك زاهرة عن الفتاة ذات الوشاح المطرز؟

نظر إلي وتنهد قليلًا ثم قال:

- ذات الوردة على الجهة اليسرى من الوشاح، لا، كانت فقط تسألني إن كنت أعرفها؟

انتظرتها في اليوم التالي، حتى ترجع لي قطعة القماش التي بدلتها، لكنها لم تأت، انقضى يوم بعد يوم.

حين اجتمعت برفاقي عند شجرة البلوط، كان أطفال البلدة يمرحون على مقربة منا، شد انتباهي ركض طفل ينظر خلفه، فتساءلت:

- لماذا ينظر إلى الخلف! أليس من الأولى أن ينظر أمامه؟

أجابني صفوان:

- لأن الخيبات التي تصيبنا من الماضي.

قاطعه منصور:

- لا يا صفوان، انظر له، يركض وهو ينظر إلى الخلف، مع أنه يوجد الكثير من العوائق قد يصطدم بها أمامه، أعتقد أنك تخاف ماضيك كثيرًا، يبدو أنك ما زلت عالقًا به.

فأكدت على فكرة منصور:

- أعتقد أنه ليس عليك أن تلتفت للخلف مطلقًا، وإن كنت تملك عينًا خلفية.

ظن منصور أنني أعلمه باكتشافي لسره، فاتكأ علي وخفض صوته:

- زغفري، يقال إن النصف الآخر من الأرض لهم ثلاث أعين، اثنتان من الأمام وواحدة من الخلف، أنت مختلف عنهم، لا تعتبر نفسك أصلًا تقيس به الأشخاص من حولك، ما اختلف عنك يصبح غريبًا، قد تكون أنت المختلف من بيننا، اهتم بهذا يا صديقي كثيرًا.

❦❦❦

- صفوان، أشعر بالهزيمة في نهاية كل يوم، كيف أنها لم تلاحظ اختلاف القطعة التي أبدلتها؟

- لا، أعتقد أنها لاحظت، إنها تعلم سبب فعلتك هذه، فتمنعت عن المجيء، وأعتقد أن لهذا تشعر بالهزيمة.

انتظرت هند حتى أتت، ولكن الانتظار قد أرهقني، حتى إنها شعرت بذلك، أعطيتها قطعتها ومعها خاتمها الياقوتي الذي بدا لي أقل جمالًا عن ذي قبل، فالانتظار يطفئ النور المتوهج، وأخبرتها أن عليها الاحتفاظ بالقطعة الأخرى، أهديتها إياها مرفقًا معها رسالة مني..

(هند.....

راقت لي الحياة في وجدانك، وعززت مطمحي بلقياك، جميل هو اللقاء وكل جميل ينفد، ولكن هذا حين يكون الجمال صفة ولكنه بك أصل فبقاؤه محتم، فلا تغيبي عني ولا ترحلي، فقد أنار الله ظلمتي بنورك، تلك القطعة لم تكن خطأ إني وضعتها لك، أهديتك إياها، وابتأست لأنك لم تعودي في اليوم التالي، فيبدو أنك علمت مرادي، لا تدعيني أنتظر كثيرًا، أنا رجل يؤمن بضيق الوقت مهما كان مبكرًا.

سلام على هند وريحها).

لم تغب شمس ذلك اليوم إلا واستلمت رسالة هند الأولى..

(سيد زغفري..... سلام الله عليك.

حاولت أن أمرر يومي دون أن أكتب إليك، كنت أعبث بأشيائي ولكن دون جدوى، كانت الأشياء تلومني على عدم الرد، وريشتي تبارزني بالكلمات، وكلما زاد رفضي تعترض وتتمرد وتتعنف أمامي، فبكيت فعلتي وتهشم رفضي أمامها.

أشكرك على تلك الهدية المميزة ومن الجيد أن أعرف تاجر أقمشة مثلك، فخزانتي ملت ثيابي، أعدك أنني سأشتري ما ستختاره وأتمنى أن تكون القطع المختارة تحمل نفس القيمة.

أما عن خاتمك الياقوتي، خاتمك أوشك أن يضيء ليلًا وكأنه قمر، في عتمة غرفتي اهتديت به، فأنار الله طريقي بك، ولكني أتساءل لماذا حفرت عليه أول حرف مني، لماذا اخترت هائي، لماذا ينسب الناس الأشياء إلى بداياتها، لو نسبت إلى النهايات لكان أولى. والسلام).

عند عودتي أنا وصفوان التقينا السيد صادقًا، رفع صادق صوته قائلًا:

- هاك زغفري، احذر حفرة أمامك.

فسبقني صفوان قائلًا:

- زغفري، السيد صادق يرى في الظلام، لديه نور خافت بعينيه.

ثم التفت إلى صادق مرةً أخرى، متسائلًا:

- كيف رأيتها، الليلة مظلمة، ولا يحمل أحدنا قنديلًا؟! منذ متى يا صادق، لقد كنت أكثرنا تعثرًا في الظلمة، أتذكر حين كنا صغارًا؟!

فقال صادق لي:

- منذ أن رزقني الله بولدي ثامر.

فقلت:

- ماذا بكم بني تميم، هل أصابكم مس من الجن؟! ماذا يحدث حولنا يا صفوان؟

فرد صفوان:

- كف يا زغفري، آمن بالأشياء غير المنطقية، لا تخف من الاختلاف.

وضعت يدي على فم صفوان حتى لا يكمل وانطلقت إلى داري هاربًا، ولكني غيرت طريقي إلى زاهرة.

- زاهرة، يبدو أن الجميع مختلفون.

قاطعتني:

- وإن كانوا...

فالتفت بعيدًا فأكملت:

- زغفري انظر إلي، وإن كانوا مختلفين عنك، يجب عليك أن لا تخاف من شيء مطلقًا، لا شيء مخيف في هذا العالم سوى ما يحمله الإنسان بداخله كالحقد والكراهية والخداع، وما دون ذلك لا يدعو للخوف أبدًا، لا تخاف من الأشياء لمجرد أنك تجهل أناها.

كانت هند عذبة الحديث، ما زالت كلماتها تعلق بي حتى إنني ما زلت أذكر رسالتها حين حدث شجار بيني وبين السيد ظافر، كان يتكلم عن البؤس واليأس في وقت كنت متصافيًا فيه مع نفسي، أساء إلي وهاجمني، ولكن ما استغاظني، أنه يريد فنائي قبل أن أوجد، أراد تحطيمي دون أن أكون.

فاندفعت إليه قائلًا:

- سيد ظافر، سامح الله مسميك ظافرًا، تقف وسط الطرق باكيًا، وفي المنتصف ضائعًا، كالأسير تمامًا طالب الدواء من قاتليه، استحِ من أفعالك، استسلامك للخسارة مخزٍ، لا تنظر إلى المرآة، قد لا ترى وجهك، أنت غير موجود، لأن وجودك غير معني به.

لم ينته بنا الجدال عند ذلك، بل وعددت له خساراته المتوالية، حتى إنني كدت أعَيرَهُ، ولكنني أمسكت علي لساني علَّ الشماته لا تدورعلي.

الرسالة كانت بدون مظروف، دل هذا على أن أفعالي أصبحت عاريةً بلا رحمة تحفظها..

(سيد زغفري.... سلام الله ورحمته عليك. توقعت أن أطيل بين رسائلي، ولكن ما حدث دفعني لإرسالها، فتعرضك للوقوع مرات عديدة لا يدفعك للنهوض، بل يجعلك تموت من الداخل، والشيء الذي يموت لا يحيا أبدًا، لم يأت وقت البعث بعد، قد يحيا بداخلك شيء آخر، ولكن تبقى متذكرًا لأحداث الوفاة بداخلك ومراسم الدفن والعزاء، الخيبات تؤذينا كثيرًا يا زغفري، وكلٌ يذكر خيباته جيدًا، لا داعي للتذكير بها).

تفكرت بكل حرف في رسالتها، أيقنت بنبل أفكارها، ولأجل ذلك واريت عن صفوان فعلة مالكة التي أحبها، خبأت كلماتها التي حدثتني بها زاهرة، ونسبت حديثها إلى عائلتها.

❦❦❦

لا أدري لماذا هند أصبحت قبل سفري هادئة، تنظر إلي غير متكلمة، تتكلم غير منصتة، أحاديثها لاهية، قست علي في وداعها لأني غادرتها، أعتقد أني سأبدل حالها بمجرد أن تطأ قدمي تميم.

اليوم العاشر من تموز، مرحبًا بشمس تشرق حين تكون الأرض أرضًا تسكنها هند، وأمر ببيتها، نزلت بزاهرة وسلمت عليهم، كان الصمت يسودهم، سأعرف خبرهم، ولكن علي أن أذهب إلى بيتي وأبعث رسالةً إلى هند أخبرها بعودتي، وقد يكون انتشار خبر قدوم القافلة جاءها، وحمامتها بداري تحلق، خرجت من بين زاهرة تكاد خطواتي تسبقني إلى داري، وأمسكت ريشتي وكتبت إليها..

(قد لا تدركين بأن الشوق هشم أضلعي، ويا مرحبًا بك وبحبك إذا كان نهايته لقاءك، رأيت طيفًا بالأمس حائرًا، ولما رأى بالعين ظلك اهتدى، سمعت أن الطيف ملازم لك، حظي أنه تتبع خطواتك).

لم أتلق برقية منها، فخرجت قد التقيها، حتى وصلت إلى صفوان، احتضنني بقوة، أعلم حب صفوان لي ولكن قط لم يعانقني بهذا الدفء من قبل، عينا صفوان هاربتان مني كلما التقيتهما، سألته إن كان يدري عن خبر هند، أخبرني أني قد أجدها بدار الاحتفالات، فانطلقت مسرعًا إليها ولما رأيتها واقفة،

بعينيها ابتسامة لم أعهد مثلها، اعتقدت أن حبها لي كان أبكم، وعيناها تخجل، اقتربت أكثر دون طرق، ولما فتحت الباب قليلًا، رأيت عينًا تراسلها، كانت يداه تُمسِكُ بيدها، خاتمي بكفه كان يُقتلُ، أقبل الشتاء بي مبكرًا، ريحه عاتية، وظلماته موبقة، مطره غاضب، وبرده قارص، ليله طويل بلا نهار، فزلزل جسدي، وخارت قوتي، أغلقت الباب متأسفًا لعيني لما رأت، أردت في تلك اللحظة بالتحديد أحدًا يخبرني ماذا أفعل؟

أأذهب إلى زاهرة؟ أم أن صفوان أقرب؟ أأخبر عامرًا؟ الجميع كانوا يعلمون، خرجت من تميم ثم عدت إليها، بكيت ثم ضحكت، فعلت كل شيء ونقيضه، كنت بالحقيقة أريد أن يحمل أحد هذا الثقل من رأسي.

فكأنك تتكئ على كرسي وسط الأشجار الرائعة عند غروب الشمس عدة ساعات، تخاف أن الإرهاق الذي أصابك من اتكائك يظهره الرسام الذي يرسم اللوحة، وإذا ما انتهى تركض إلى اللوحة، اللوحة رائعة كأنها الطبيعة نفسها، غير أن الكرسي الذي كنت تتكئ عليه فارغ، اللوحة تضمنت الجميع إلا أنت، ذلك الإحساس الذي أصابك يدعى الصدمة، شعرت بالصدمة تجاه هند وخيانتها، أظن أن هند خلقت من طين الجحيم.

وأصبح الصمت هو مذهبي، فلا طائلة ولا فائدة من الحديث، أشعر بكراهية أنهم يشعرون بالشفقة تجاه فعلتها بي، وكأنها ألصقت بي عارها، في ذلك اليوم انطفأ شيء بداخلي، مر عام على زواج هند، بت أنسب الأحداث إلى هذا التاريخ، مع أنه الأكثر بؤسًا لي.

نحن نستطيع أن نتجاوز الأشخاص، ولكننا لا نستطيع أن نتجاوز المواقع التي خضنا بها معاركنا، نتعثر بالجروح التي أورثتناها الحروب، الآلام لا تغادرنا مطلقًا، كلما أتى الربيع تذكرنا ربيعنا، وحين يحل الخريف يؤرقنا، كالعشب إذا مال فانعوج، تذكرنا أننا ذهبنا وما عدنا.

أو كلما حل بنا طيف من العطر تذكرنا، كمثل ريحه حين كان الحبيب هنا فنبتئس، نحن نشتاق دفئًا حل بنا من بعد برد ثم رحل، نبكي حالنا، أو أننا هُنّا على من أحببنا، وعدت مرة أخرى إليهم كقائد خانه جميع جنوده فانهزم، نسي الجميع ما حدث، ولكني إلى هذا اليوم أذكر.

(٢)

- رحم الله أبا منصور، أتدري يا منصور، فزعت لموته، كان رجلًا حليمًا مات صحيحًا بلا علة يشكوها.

- اخفض صوتك يا زغفري، المرض فتك به.

- كيف ذلك؟ منذ متى؟ لمَ لم يخبرني أحد بمرضه؟!

- أنت تائه وممزق يا صديقي، صامت حين تتكلم، جائع وأنت تأكل، غضبان وأنت تضحك، استسلمت مبكرًا وأنت لم تخض السباق بعد، أرهقك الماضي يا زغفري، روحك هرمة رغم أنك غدوت فتيًا، لم تلحق بالكهولة بعد.

أكملت جلستي مع منصور غير موجود، صامت وكل ما بي يتحدث.

يقول عامر: اعلم أن حرارة النار تنضج خبزًا. ولكن ماذا يا عامر إن كان الدقيق لا يريد أن يصبح رغيفًا، وماذا إن كانت سنابل القمح لا تريد أن تكون دقيقًا، ليست كل الوجوه تبسمت عند ولادتك، ولن تبكي كل العيون عند وفاتك، ليست كل الأفعال يستسيغها العالمين بطعمها في فيك أنت.

يوم السابع من شهر كانون الثاني، أتت زاهرة إلي، نظرت إليها مرحبًا، ولما اقتربت:

- سيدتي، هلا تعودين إلى منزلك، وسأبعث لك بزغفري نفسه يحمل الأقمشة لتختاري ما شئت.

ضحكت:

- زمردة تريد أن تبتاع بعض الأقمشة، أرني ما عندك يا زغفري.

اختارت السيدة زمردة قطعةً، ولما أرادت أن تشتريها، أهديتها إياها، وفي اليوم التالي أتت السيدة وتركت لي ورقةً مع صفوان، فتحتها..

(ثم إن عينيك كانت أشد إشراقًا من شمس ذلك اليوم لم أر شروقًا كهذا من قبل).

- صفوان، من ترك هذه الورقة؟

- أعتقد أنها السيدة التي أتت مع زاهرة الليلة الماضية، أي حديث في الورقة أربك؟

- لا شيء، تقول السيدة أن القطعة سيئة للغاية، وأن علينا إيجاد خامات أفضل.

- لا عليك يا زغفري، دعك منها.

أومأت برأسي موافقًا على ما يقول.

كنت أعلم أنها ستأتي مرة أخرى، بل كنت على يقين من ذلك، كنت أنتظر قدومها.

ولما نزلت بنا ناديتها:

- سيدتي، هلا تقتربين؟ أعتقد أن الورقة تُرِكتْ بالخطأ، لم أهدِ إليك القطعة لأنك أنت، بل لأن زاهرة كانت معك، أرجو أن تعي ذلك.

نظرت إلي، رأيت عينيها، ابتل وشاحها، كانت دموعها تمطر، صمت قليلًا، كدت أن أعتذر لها، ولما رأيت وردةً مطرزةً على وشاحها، انصرفت عنها، وكأنني رأيت هند بوشاحها.

ضاق صدري، وفي الليل ذهبنا إلى شجرة البلوط، قاطع صفوان الصمت بيننا:

- زغفري، ماذا اقترفت مع السيدة؟ كانت منزعجة حين رحلت عنك.

- أخبرتها أن لا تأتي مطلقًا إلى حيث تجدنا..

كنت أريد أن ينتهي الحديث إلى هذا الحد، ولكن منصورًا رآنا نهمس بعينه الخلفية المخبأة خلف الوشاح، فاستدار إلينا مناديًا:

- صفوان، ماذا يجري هنا؟

فحكى له صفوان ما حدث:

- اشترت سيدة منا أقمشة، ولم ترض عنها، ولكن السيد زغفري لم يعجبه استياءها فعاقبها على ذلك. فالتفت إلي منصور:

- زغفري، في هذا العالم يوجد ثلاثة أنواع من الحياة: أولهم أن تحيا لمجرد أنك تشعر بنبض قلبك، وهذا يصدر عن كونك ضعيف الإرادة، إن سرتك الحياة ضحكت، وإن ضاقت عليك عبست، والثاني أن تحيا باحترام تبادله مع من حولك، لا تفرح ولا تأسى

من أسرك أحببته ومن عاداك أبغضته، لا ترى أحدًا، أنت ترى أفعالهم فقط، وهذا كونك خائفًا أن تحيا، أما الثالث فأن تحيا محبًا، تحب أرواحًا وأخرى تنافرها، إن أخطأوا سامحتهم، وإن أساءوا لنت لهم، وهنا عليك أن تكون قويًا.

- ماذا أكون أنا؟

- ضعيف، حتى إنني أخاف أن ألمس روحك فتنهار.

أمسكته من عنق قميصه وجذبته إلي:

- أيجب علي أن أسامح هند يا هذا؟

- لا، يجب عليك أن تسامح نفسك، اغفر لنفسك ضعفها.

تركته وانصرفت، لحق بي صفوان:

- زغفري، انتظر.

- دعك من هذا الهراء يا صفوان، علي الرحيل باكرًا حتى أبتاع الأقمشة، وأنت أيضًا عليك الاستيقاظ، بالمناسبة لم أقل لها ما يستدعي البكاء، وما كان عليك أن تحكي لمنصور ما حدث، الأمر أتفه بكثير من أن يحكى.

فسألني بتعجب:

- أكانت باكية؟!

ثم إن منصورًا استدار بشكل مفاجئ إلينا، فقلت له:

- منصور كان ينظر إلينا بعينه المخبأة.

فأعاد سؤاله:

- ماذا عن السيدة؟

- كان وشاح وجهها مبتل، رأيت عينها تبكي.

- زغفري، ألا تلاحظ أنك ترى ما يخبأ خلف الأسدال يا صديقي!

- احذر يا صفوان أن تتمادى كثيرًا في تعنيفي.

رحلت عنه، خائفًا مني، ما قاله صائب، لم تغمض عيني حتى كتبت إلى زمردة رسالةً مني، لا أعتذر فيها عما حدث، ولكني أوضح لها فعلتها الخاطئة تجاهي..

(سيدتي..

العالم ليس مكانًا آمنًا لأن تحبي، الفراق يتربص بأزقة الطريق، الفقد ولد معي، وأصبح جزءًا مني، فقدت من لم أرهم وأشتاق إليهم، للفقد مرارة حفظك الله منها، كنت قد عاهدت نفسي أن أبقى بجواري، وأتحصن بي، كفاني شوقًا، كفاني فقدًا، صدقيني الخارج ليس آمنًا بالقدر المطلوب).

ثم ذهبت إلى زاهرة..

- زاهرة من زمردة؟

- صديقتي ابنة السيد قاسم.

لم أدعها تكمل، وأعطيتها رسالتي الأولى إليها.

- هل جننت، أي رسالة تبعثها ولمن؟!

- أوصلي هذا المظروف إلى ابنة السيد قاسم.

ثم رحلت عنها.

لم أكن على شك من أن زاهرة ستوصل المظروف إلى زمردة، وكنت على يقين بأن زمردة سترسل إلي رسالة، ولذلك لم أذهب إلى زاهرة خشية استلام الرسالة، فجاء إلي عامر، يبدو أنني وُرِطتُ بما ليس لي طاقة لحمله فتعنفت أمامه، ولكنه كان أكثر هدوءًا من عادته وخاطبني بلهجة هادئة:

- لماذا لم تذهب مع القافلة؟ ثم إن زاهرة تسأل عن غيبتك هذه.

فأكمل صفوان:

- بالمناسبة يا زغفري، تلك السيدة أتت مرة أخرى، فاعتذرت لها عن سوء القطعة التي ابتاعتها المرة الماضية.

فقاطعته:

- هل تلمست خبري؟

فنظر كلاهما إلي فضحكت بصوت مرتفع، أعتقد أن هذه المرة الأولى التي ضحكت فيها منذ عام كامل، فكفانا الله الخيبات التي توجع أرواحنا.

ليلة الواحد والعشرين من كانون الثاني، دخلت داري المظلمة، فزعت من رؤيتي هديةً موضوعة على رف خشبي، رأيت رسالة داخل العلبة المغلقة، ففزعت أكثر، يبدو أن صفوان محقًا، أرى ما يحفظ خلف الحُجُب، من دخل داري؟ ومن وضعها؟ فتحتها حتى كدت أن أمزق غلافها، منديل حريري مطرز بخيوط بنفسجية، خط عليه (زغفري).. فتحت المظروف..

(أتمنى أن تعجبك هديتي إليك، وضعتها على الرف الخشبي، راق لي كونها أول ما ستراه عند دخولك، رسالتك لي التي حذرتني فيها، لم تكن صادقًا في كونك تخاطبني، أنت تخاطب نفسك يا سيدي، تكلمت فيها عن فقدك أنت، ياء متكلمك أنهيت بها جميع كلماتك، حذرت نفسك أنت، كان الأولى أن توجه إليك. عشت عزيزًا).

لم أفكر إلا في كيف وصلت الهدية إلى هنا، مفتاح واحد معي، ولكني إن سألت زاهرة بشكل مباشر لن يفلح الأمر معها، وعند الانتهاء من عملي ذهبت إليها.

- زاهرة، أعتقد أني ضيعت مفتاح بيتي، هل تملكين آخر؟

- لا، أحقًا أضعته؟

أردت التأكيد على طلبي:

- يبدو أنني سأبيت الليلة بدارك.

- مرحبًا بك هذه الليلة، وكل ليلة.

استمرت مؤامرتي عليها أسبوعًا كاملًا دون جدوى، لم يظهر أي مفتاح آخر للمنزل، فانتظرت زمردة حتى أتت، أمسكتها من طرف ردائها، وجذبتها إلي:

- أنتظرك عند ضفة النهر.

- متى؟

- بمجرد ذهابي.

أسرعت إلى هناك، وحين التقيتها، كان سؤالي الأول:

- كيف أوصلت الهدية إلي؟

- أستطيع الدخول إلى أي مكان شئت، إذا كانت به ثغرة واحدة، وبيتك مليء بالثقوب تبدو لك أنها صغيرة، ولكنني استطعت الدخول منها.

علقت عيناي بعينيها، ثم التفت بكامل جسدي، علمت أن الأمر لن يفلح بانتشال عيني فقط..

- عزيزتي، يبدو أنك صغيرة بالقدر الذي قد يجعلك تجهلين خطورة فعلتك، واقترافها معي على وجه خاص، ثم إن الحب الذي تبحثين عنه عذاب بلا مغفرة، ووجع لا ينفد، داء لا يبرأ، سراب تحسبينه ماء وهو الجحيم الأعظم، اهربي متى وجدته، هو شعلة خافتة الآن بقلبك إن تُرك ستحرقين عالمك، أطفئيه حالًا.

تركتها وانصرفت عنها خشية أن تلحقني، ركضت أختبئ منها حتى وصلت إلى صفوان، حكيت له ما حدث:

- زغفري، قلبك سيرشدك أي طريق تتبع، أغمض عينيك.

- لا، بالداخل مزعج أشد خرابًا من حولي.

- تذكر دائمًا، أن قلبك ما زال ينبض.

- لا، إنه محطم للغاية، إنه يشهق منذ أن رأيتها تمسك بيده.

- أما زلت تحب هند يا زغفري وتشتاق لها؟

- لا، كلما قسا قلبي علي بها، قسوت عليه بفعلتها، وأنت يا صفوان، ما حال مالكة؟

- أن يكون الألم أشد من أن تشعر به.

❦ ❦ ❦ ❦

تمضي الأيام وأنا ما زلت عالقًا بيوم محدد، توقفت الحياة في ذلك اليوم بالتحديد، ولكن زمردة لم تمل ولم تيأس؛ لم ترحم جروحي التي لم تبرأ، في البداية بدأت بالمقاومة ثم بدأت أنحني ضعفًا، كنت أذهب إلى النهر للقائها صدفة، فألتقيها أنظر إليها ولا أحادثها، حتى أتت إلي تقترب فأتزحزح أنا جانبًا.

- كيف حالك يا زغفري؟

- بخير.

- النهر رفيقي منذ صغري، ولكني لم أعهدك تأتي إلى هنا.

نظرت إليها، لم أستطع التحدث، أقسم أنني كنت أريد أن أتكلم لكن شيئًا ما يمنعني فاستكملت:

- أنت هنا لأنك أردت ذلك..

فقاطعتها:

- انظري، الدخان يصعد من داخلي.

- لا بأس، هذا الدخان دليل أن قنديلًا بداخلك كان مشتعلًا.

- لا، كنت أحترق.

- ولكن الحب لا يحرق.

- يجب علينا أن ننسب الأشياء إلى النهايات.

- إذًا هذا الدخان يدل على أن الحريق قد انطفأ، أخبرني بماذا تشعر بالتحديد.

- يلازمني شعوران، الأول، أشعر بالإحباط، أريد أن أفعل ولا أستطيع، أُعَان ولا أُعين.

ثم صمت.

- من فضلك، تابع.

- أما الثاني فهو الصمت، لا أريد التحدث، لا فائدة.

أمسكت بوجهي وأدارته مقابلًا لوجهها تمامًا، ونظرت إلي:

- أرهقتك الحياة يا زغفري، وحان الوقت لأن تريح قلبك، أطلب منك صعبًا أنت تفوقه قوة، اترك نفسك إلي، وهبت لك الحياة.

ثم باغتها بسؤالي:

- ملائكية أم إنسية أنت؟

- خلقت من الطين، وأنتسب لجنس حواء في فصيلة الإنس، أما سؤالك عما تراه بعيني فما هو إلا انعكاس ما بداخلك أنت، إنسي أم ملائكي أنت؟

تمنيت في تلك اللحظة لو أنها ضمتني، فدفنت روحي بداخلها، علها تنبت روحًا جديدة تليق بها.

تركتها وغادرت بعيدًا، لم يكن للنوم باب يدخل إلي منه، كنت أختنق ليلًا، أشعر بالخجل كوني أقف في المنتصف، لا أستطيع التقدم، تهتفين لي وكأني بسباق منهزم، ثم يخفت صوتك، تعبرين أمامي بشكل واضح ومنطقي، يدك تمتد إلي، وكأنني مثبت بالأرض، فلا تستطيعين لي جرًا، فتلوحين لي علني ألحقك، فلا أستطيع، وما علمت أن ساقي تنزف.

قررت أن لا أذهب إلى النهر مطلقًا، كلما رأيت زمردة استذكرت هند بحبها وجرمها، فأغلقت هذا الباب تمامًا، وعندما رأيت مظروفًا على الرف الخشبي، علمت بأنه منها، وسحبته ثم تركته، لم أستطع تركه حتى الصباح ففتحته..

(حمدًا لله على كونك خلقت في هذا العالم، وفي هذا الزمان ولو غير ذلك لحييت أبحث عنك بلا جدوى، فسلام من الله عليك، أعلم بأنك لا تتألم لأن هند خانتك بل لأنها فعلت وأنت تحبها، فخيانة العدو تدعى خدعة، توقيت الحدث يغير مذاقه، وأعلم أن بترنا للأحداث التي تحدث لنا بذكر كل جزء على حدة يشتت عقولنا ونصبح أقل إدراكًا للحقيقة.

ثم إن الحب هو المأمن وسط الفزع، ظل يظلك، رحمة تتسعك، جيشك العارم، الحب هو أمان هذا العالم، دمت جميلًا تفوق الجمال جمالًا.. عشت عزيزًا).

ظلت الرسائل تتوالى بيننا واللقاءات أصبحت متكررة. يوم الخامس عشر من أيلول كان رجال البلدة مجتمعين، لم يكن الأمر جيدًا، وحين دخلنا أفسح لنا رجل فراغًا ملأته بالمناصفة مع صفوان وبدأت ألملم الكلمات من هنا وهناك.

يبدو أنه أمر سيئ، بل أسوأ مما توقعت، توفي السيد قاسم، والد زمردة، بدأت أتساءل كيف؟ ومتى؟ وعلمت أن مرضه تضاعف، لم أكن أعلم، ومن سيخبرني وأنا ما زلت معتكفًا بعزلتي، شاردًا من نفسي، ساءني أن فات وداعي لأحدهم، أو أنني لم أشهد أفراحهم، ومن البؤس أن تعلق بحدث ما فات وانقضى، العالم لن يغفر لك هذا، البشر لا يغفرون.

حملته على كتفي مع أبنائه، وواريته التراب، جلست بجانبه عند قبره، شعرت أنني أريد ذلك، وأسرعت إلى النهر كل يوم أنتظر زمردة حتى أتت..

- زمردة، رحم الله السيد قاسم.

- كان مريضًا، ودلت الليالي الأخيرة على قرب وفاته، لكنه لم يكن وحيدًا في موته، وجود عائلة لا يضمن لك أن لا تموت وحيدًا، أما امتلاكك حبيبًا ضمن لك ذلك، اللحظة الأخيرة قبل وفاته واجهاها معًا.

- من؟

- والداي، وأظنه لن يكون وحيدًا في قبره.

نظرت إليها بتعجب، فأجمعت يديها:

- الأرواح تتلاقى يا زغفري.

ثم رحلت، وقبل أن تغيب عن عيني، نظرت إلي ونادتني بصوت يملأه الترجي:

- زغفري، لا أريد أن أموت وحيدةً.

- اعتادي الحياة وحيدة، ولا تطمعي في الاثنين: الموت والصحبة، اكتفي بذاتك، لا تنتظري من أحدهم شيئًا، للجميع أعين خائنة، الجميع خائن، والتوقيت سيحدد مذاق خيانته.

فاقتربت ومالت إلي:

- أنت لست عالقًا بذلك اليوم أنت تعلق بحب هند نفسها، خيلت لك أنها الجنة ونبذت عنها، فلا أرض ترضيك بعدها.

ورحلت، كانت مخطئة، لقد تجاوزت هند ولكنني آسى لكآبة وألم ما حدث، ما زلت أذكر، فخلدت إلى الصمت مرة أخرى، لأن لا طاقة لي بالحياة بعد، مللت أن أرى مظروفها على رفي الخشبي، كان خطؤها غير مغتفر، ليس لأنها أخطأت ورمت بالتهمة علي وخلفتني، بل لأنه لا يجوز لها بعد أن رفعت يدي إليها أن تتعنى، انحناؤها مخجل بالنسبة إلي، يئست مني فأمسكت رسالتها وقلبتها يمينًا ويسارًا فألقيت بها بعيدًا وبعثت لها برسالة مني..

(رسالتك تركتها ملقاة على الرف الخشبي بغرفتي، هرب مظروفك، علم ما به من وصف أنت ابتعثتيه فافتتن بي، ورقك خائن وقلمك يعلم، خانتك رسالتك يا صغيرة، الكل فانٍ، وكل شيء يميل إلى أصله، فكل وعودك فانية).

استلمت مظروفًا منها..

(المظروف رأيته خلف الرف الخشبي، يدك بطشت برسالتي، يدك من خانتك، أورثتك هند فعلتها، رسالتي لم تخني، واني لراحلة مع القافلة إلى عمتي بسردقة والسلام).

قرأت الرسالة ثم أغلقتها وألقيتها جانبًا، ومشطت شعر رأسي، لاحظت عند نظري إلى المرآة أنني لست بتلك الوسامة التي أعتقدها.

❦ ❦ ❦

في يوم الحادي عشر من شباط رحلت القافلة التي تقل زمردة، شعرت أن شيئًا ثمينًا يبتعد، يغادر، ألن أنتظر كل صباح أن يتسلل أحدهم إلى بيتي ويترك رسالةً على الرف الخشبي، أتكون ضفة النهر خالية منها، مرت ليلة وليلتان، بدأت أشعر بالوحدة، علمت أنني ما شعرت بالوحدة إلا لأنني افتقدت رفقتها، لو كنت وحيدًا

معها، ما شعرت بالاختلاف بعد رحيلها، البؤس في هذا العالم أنك لا تلحظ بسعادتك إلا حال حزنك، لا تستشعر النعم إلا حال فقدانها، فالإنسان لا يدرك الأمور إلا بتحسس الفروق بين كل شيء ونقيضه، والبؤس الآخر مرورك بحدث ما، ينشب عنه مأساة لحقت بك ستحارب العالم أملًا أن لا تحدث مرةً أخرى، وإن تكررت نفس المأساة ستترك الأمور تطيح أرضًا بؤسًا منها، الأمل واليأس حدان لنصل واحد، كل حد قد يؤدي بحياتك يا سيدي.

فلم يكن في استطاعتي فقدانها، قلبي أبى ذلك، وعقلي نفى أفعاله، ولحقت أنا وصفوان بالقافلة، أدرك أنه لم يمر على رحيلها سوى يومين، لم تكن زمردة الوحيدة من عائلتها بل كانت بصحبة والدتها وأخوين لها، كدت أرجع القافلة بأكملها إلى تميم.

أفشيت سري بحبها، كان الأمل يدفعني لفعل ما يلزم لعدم مغادرتها، وأقنع الجزء الراحل من العائلة بالعودة، لكن لم يعد أحد منا، في الليل هجم علينا اللصوص، حاولنا الاحتماء بوادٍ يدعى وادي نعيم، يبعد هذا الوادي عن تميم يومين إن كنت تمتطي فرسك. ولكنها كانت الخطة الأشد خسرانًا، السهام التي

انهالت علينا فتكت بنا، كنا نعتقد أننا نتخفى، ولكن الأمر كان بائسًا. نجا من نجا وهرب من هرب ومات الكثيرون وفقدت في ذلك اليوم نفسي، فقدت زمردة.

في ذلك اليوم بكى الرجال وقهرت أنا، وبدأت أصيح بالموتى، وكلما نظرت إلى أحدهم وجدته صديقي أو رفيق أحد أسفاري أو جار يسكن بجواري، بكيت حتى كادت الصحراء أن تنبت.

وقفت على القبور، فبكيت الفقد وبكيت اليتم بكل أشكاله، بكيت كل طفل فقد أباه، وكل كبير فجع بأمه، أبكي كل رحيل وكل سفر وكل فراق وكل قطع، أبكي الدموع المنهمرة، وآهات الفاقدين، حتى إنني بكيت دموع الدواب التي لم تسقط، وحفيف الأشجار التي فقدت أوراقها، بكيت الفاقد والمفقود. لم أجرؤ على العودة إلى تميم، وأخذت أتنقل مع البقية كفأر يركض من مكان إلى مكان، وهنا علمت بأنك انعكاس لمن حولك، كنت رجلًا شجاعًا يكاد سيفي يقتل خمسين رجلًا مرةً واحدة حين كنت مع زمردة، وأصبحت اليوم فأرًا مذعورًا حين فقدتها.

لم تكن الخطة أن نحتمي في الوادي، بل أن نحمي القافلة به ونقاتل، فالحرب واجبة وإن كنا منهزمين، أن تموت مقاتلًا خير من أن تموت فارًا.

اعتقد صفوان أن زمردة قد قتلت عند خروجنا من الوادي بها، تركته يحكي كيف فقدت، كنت أستمع إليه كالبقية، وأبكيها كبكائهم، هم يبكون موتًا، وأنا أبكي فقدًا، وانفصلت عن القلة الناجية العائدة إلى تميم بعد أن استيقظت وقد رحلت عائلتها إلى تميم مرةً أخرى، أقسمت أني لن أرجع إلى تميم إلا بها، وبعثت رسالةً إلى زاهرة..

(لكثرة الماء تغرق، دعيني أتعرى من انغماسي بك، دعي حرارة الشمس تحرقني، لا تواريني خلفك كما تفعلين دائمًا، أسأت كثيرًا يا زاهرة، دعي الحياة تطهرني، ثم إن تميم حرمتها علي حتى آتي بزمردة، حبيبتي، وإني أجد مرارةً بفقدها، أريد أن أبرهن لك على أني ما زلت أحيا، كانت في نهاية كل رسالة تبعثها (عشت عزيزًا) أريد أن أحيا عزيزًا يا زاهرة والسلام).

وغادرت إلى بلاد لا أعرفها، حتى لا يبحث أحد عني.

تنقلت أنا وصفوان من بلدة إلى أخرى، عراة جائعين فاقدين، سكنت مع صفوان ببلدة زهران، بلدة تبعد عن تميم عشر ليال.

الحياة لا تروق لي بعد ما حدث، لم أعد أجد فيها شيئًا ممتعًا، كيف علينا أن نعتاد أن لا نكون سعداء، كل ما في الأمر أردت أن تكون لي عائلة، فسلبت الحياة مني، هل كنت أطمع حين تمنيت ذلك؟ أعتقد أن أمنيتي كانت جائزة.

حين مررت بجوار الحانة، كنت أستنشق رائحةً تخرج منها، ليست رائحة خمر، كنت أستشعر رائحة الحزن فانجذبت لها.

❦ ❦ ❦

بدأت أتعامل مع من حولي بنصف عقل، ونصف جوارح، ثم ربع، ثم سدس، ثم ثمن، ثم انطفأت تمامًا، وعندما ينطفئ الإنسان يُنْسَى، أرض مظلمة لا يُرى فيها المنطفئون، وإن انطفأت ركلك الجميع ونُسِيتَ وتُركتَ بعيدًا.

بدأت أتردد أن أدخل الحانة ثم أمتنع، حتى ولجت فيها، لم أستغرب لرؤيتي السيد ظافرًا الذي كان يرحل معنا في القافلة، ولم أستغرب من نجاته، الحياة لا تُبقي إلا البائسين، شعرت بالراحة لرؤيته، نعم، تبدلت مشاعري تجاهه، وبدأت أشعر بكل متألم على الأرض، وهنا الكل متألم.

اليوم الأول لم أفعل شيئًا سوى النظر إليهم، فالحانة عالم آخر ليتني لم أعرفه، رأيت فيه غير الذي رأيته في عالمنا، وسمعت قصصًا ما سمعتها من قبل. في اليوم الثاني جلست بجانب السيد ظافر صامتًا، ثم سألته:

- لماذا يأتي الرجال إلى هنا؟

- لماذا أتيت يا زغفري؟

أعدت سؤالي بوضوح أكثر:

- ماذا يفعل الإنسان إذا أصيب بالحزن؟

- يغلق الأبواب ويصرخ.

- ماذا إن أخبر أحدهم؟

- العالم مليء بالضجيج لا أحد يحتمل.

- صديقي، أنا حزين.

- هششششششش.

فشربت كأسي الأولى، عندما أتى صفوان لاصطحابي إلى المنزل كان غاضبًا:

- زغفري ماذا كنت تفعل؟

- كنت أحترق ليلًا.

- وأين كنا؟

- العالم كان نائمًا.

- العالم كله كان نائمًا!

- لا، المتيقظون تظاهروا بالنوم أمامي.

- وكيف ذلك؟

- أغلقوا أعينهم ووضعوا الوسادات على رؤوسهم.

- إذًا كانوا نائمين.

- لا، كنت أسمعهم يتغامزون من تحت الوسائد.

- زغفري لديك تجارتك، العالم لديه أشغاله، لن نبكي موت زمردة طيلة النهار، ونئن عليها ليلًا، استيقظ يا صديقي.

- هششششششش.

بدأت أتردد على الحانة ليلًا، ثم ازداد أمري فأنسلخ نهارًا عن تجارتي وأذهب إليها، وكنت أشرب وأزداد شربًا ولكن لا مفر، لا أنسى وعندما أنسى أحاول تذكر ما نسيته فأتذكر، لا أتذكر زمردة وحسب، بل أتذكر الغدر الذي طالنا، القافلة، الموتى، المصابين. بدأ الجميع بالابتعاد عني، وبدأت أنا بالالتصاق بالحانة وظافر، هناك أحاول أن أنسى مصابي وفقدي ولو لدقائق، فنحن حين نفقد لا نفقد فقط، بل نفقد ثم نحتضر ثم نموت ونولد من جديد، لم تكن لدي مقدرة سوى للموت والبعث مرة واحدة، لست قويًا بهذا القدر، فأصبحت فاقدًا ومفقودًا، فاقدًا لروحي ومفقودًا لنفسي، فكفاكم الله شر فقد لا تتحمله أرواحنا، وكفاكم الله شر فقد يكسر ما لا طاقة لنا لإصلاحه، غير أني حملت حملي بذاتي، الجميع آمن بموتها، ولم أخبر أحدًا بأنها تحيا في أرض ما، وأين أبحث عنها، فضربت بكل ذلك عرض الحائط فيبدو أن يديّ تفلتان ما يحمل بهما.

❦ ❦ ❦

تعرفت في الحانة على الكثير، عرفت رجلًا يدعى أبو مهران، فقد تجارةً كثيرة، لم تؤله الخسارة، وأخبرني أنه وضع السم لزوجته في طعامها، قتلها لأنها خانته، كانت توصل أخباره لقاطع الطريق وتتقاسم معه المال، كانت خائنة بلا سبب يجعلها تخون.

أذهب إلى تجارتي يومًا وأغيب عنها شهرًا، حتى أخبرني صفوان أن نساء ظهران يخفن الاقتراب وأنا بجانب الأقمشة، وأخبرني أن لا أعود مطلقًا إلا إذا انتهيت عن فعلتي، فرحت كثيرًا بهذ القرار وارتاح قلبي أن لا أعود إلى هناك.

كان هذا بعد أن حضرت صلاة الجمعة، الجميع تجنب الجلوس بجواري، الجميع ابتعد عني، حتى صرت صفًا أخيرًا أنا وصفوان، ونمت أثناء الخطبة فقذفوني خارج المسجد، أحسست بالراحة وتركت الصلاة تمامًا من أفعالهم السيئة تجاهي، فأفلت حبل السماء الذي كنت أتعلق به.

❦❦❦

حادثة انتحار السيد أبي مهران، تحدث الكثيرون عنها حتى أتى إلي صفوان:

- هل تعلم بموت السيد أبي مهران زغفري؟

- انتحر يا صفوان.

- أنت تعلم ماذا حل به؟

- نعم، قفز من جواري من أعلى البناية.

- لمَ لم توقفه؟

- كانت حياته مرهقة للغاية، وثقلت همومه فتركته يقفز عله يرتاح، حاول أن يمد يده في اللحظة الأخيرة من سقوطه، إلا أنني تركته يفلت، كانت إغاثته في تلك اللحظة مستحيلة.

ثم ضحكت ووضعت يدي على كتف صفوان:

- لا تقلق، لم أمد يدي ولو على سبيل المحاولة.

- نظر إلي والذهول يجتاحه فأكملت حتى أنهي هذا الحديث:

- لوحاولت إغاثته لما استطعت، فتركته يظن أنني لم أرد الإمساك به، حتىّ لا يندم ويظن أن شخصًا ما يستحق أن يتمسك به.

- ما الذي دفعه لفعل ذلك؟

- كان العالم من حوله رخوًا، أراد الارتطام بشيء قوي عله يتيقظ، ويبدو أن الاستيقاظ الحقيقي أن تموت.

في الشهر الرابع من إقامتي في الحانة، أتى صفوان وأخبرني بشيء لا أدري عن الخبر، أذكر أني كنت أقول له وأردد: من روى زهرةً لا يقطفها يا فتى، خلفني غضبان وذهب.

اتجهت كعادتي إلى الحانة، يد أوقفتني وردعتني عن الدخول إليها، نظرت إلى صاحب هذه الدفعة، فوجئت بعامر، فسألت نفسي أأنا بتميم أم هو هنا؟

- زغفري.

- دعني وارحل.

- أعلم بالأمر الذي تخبئه.

- لا، لا تقل شيئًا.

اهتز جسدي؛ أي أمر سمعت روحه روحًا تهمس به، خبر هند أم زمردة؟!

- عليك أن تستمع لما يدور بداخلك، أنصت إليك وصارحها أن هند لم تخنك.

- أقسم لك أني لم أكن أنوي الرحيل، لكنها لم تنتظر.

- هند لم تخنك يا زغفري برحيلها مع آخر، هند كانت حائرةً في شعورها تجاهك، وفضلت الصمت، لم تقل أحبك ولم تنفها ولذلك هي خائنة، هند كانت تريد أن تشعر بالحب ولم تستطع أن ترفض هذا الحب الذي بعينيك لها لذلك هي خائنة، هند لم تخن وعدًا ولكنها خانت نفسًا لذلك هي خائنة، هند خائنة لأنها برأت نفسها وجبنت أن تعترف لك أنها لم تحبك وأنكرت عليك غيابك واتخذته الحجة الأقوى للرحيل، للخيانة وجوه متعددة يا زغفري.

- خبرتها أن تنتظر ستة أشهر فقط حتى عودتي من رحلتي، ولكنها رفضت لذلك حللتني وعودي تجاهها، لكني لم أحمل الرسالة على محمل الجد، ولكني كنت مخطئًا.

- ماذا عن زمردة؟

- زمردة جميلتي وحبيبتي وفاتنتي، أسطورتي الساحرة، ينبوع فؤادي وعنفوان شبابي، رائحتها عطر من السماء، كانت إشارة الله لي بالرحمة على الأرض. زمردة جنتي وناري، رحمتي وعذابي، يقيني وفتنتي في هذا العالم، إن لامستها طهر فؤادك، وإن ضحكت لك ربعت أيامك، أظن أن زمردة خلقت من طين الفردوس.

- وأين هي يا زغفري؟

- ضيعتها.

نظرت إلى السماء، الله الأمان في هذا العالم، أعلم يا الله أنك تدبر أمري وترحمني، وأعلم أيضًا أن الدموع التي تنهمر من عيني لا تنزل على الأرض مطلقًا، بل تنزل في رحمتك فتصبح ماءً زلالًا أشفى به، ولكن يا الله لم أستطع تحمل الأمر، المصاب كان سيئًا للغاية، دمرني وكسر قلبي وقهر روحي، أنا متعب يا الله، أعلم أن انتصار الشر على الخير ما هو إلا لنزداد إيمانًا بك، فالتوكل عليك في السراء أمر هين، أما في الضراء فتجزع النفس ونصاب بالحسرات ويدخل إلينا الشيطان، لأن ثغرات ضعفنا تزداد بشدة، فاربط على قلبي يا الله حتى لا أنهار أكثر، واحفظ الباقي مني حتى لا أضيع أكثر، أعدك يا الله أن قدمي لن تطأ الحانة مرةً أخرى، كان ظافر مخطئًا، يوجد فوق العالم الله يسمعنا دائمًا، أما الحانة مكان ممتلئ بالضجيج يقال فيه إذا نطقت هششش.

فأم موسى عليه السلام ربط الله على قلبها لتلقي به، وأصحاب الكهف ربط الله على قلوبهم ليقولوا ربنا الله، أي أن الأمر أن يربط الله على قلبك في المصاب لتصبر.

صليت الفجر ثم انطلقت مع عامر إلى تميم وتركت صفوان بظهران عند تجارتي، دخلت إلى منزلي، نظرت إلى الرف الخشبي لأجده فارغًا، ولكن ما زالت رسالة زمردة ملقاة خلف الرف، أمسكت مظروفها، واحتضنته كثيرًا، فتحته..

(يؤلمني أن ليلك طويل، وشتاءك قاسٍ، وكَلتُ الوسادات لحمل رأسك، والغطاء لتدفئتك، وتُركَ لي التفكير بك، ليلي ساهر، ونهاري أتلمس أخبارك، أعتذر كوني لم أستطع أن أكون لك، أو أُضافَ إليك، ذاك الاضطراب الذي يعصف بداخلك، وتلك البرودة التي تجتاحك، ستراديك مهزومًا، ولكن ماذا إن كنت سندًا لأحدهم، رغم شعورك بالاضطراب ما زال يتكئ عليك، الدروب مظلمة فبات يستنير بك، أحدهم يشعر بالاضطراب معك يكاد يلمسه، هذه القوة التي تراها كذب، بدونك أنا أوهن منك ضعفًا، قد انحنى ظهري مبكرًا لوفاة والدي، ليس من أجل كونه قوة لي، لي خمسة إخوة يفوقونه شبابًا، أعلم بمقدار حبه لي الذي مهما بلغوا لن يشاطروه جزءًا، كم هو مريح أن تنام وتدرك أن أحدهم ينتظر الصباح لأجل رؤيتك والدي -رحمه الله- كان يفعل ذلك، هل تعي الآن حجم خسارتي؟

ولتعلم أن الحب هو الشعور الوحيد الذي لا تشعر به إلا إذا وهبته لمن تحب.

حاول يا سيدي أن تخرج منك إلي، حاول أن تناضل من أجلي، من فضلك افعل ذلك، لا تتركني أنا لا أقوى على الفراق، ولا أستطيع النسيان، ذاكرتي في العشق خالدة، افعل شيئًا من أجلي، افعل شيئًا ينيق بحبي لك، لا تخزني بك أمامي، ولا توقف بحبي عصفًا لك بداخلي، افعل شيئًا يا زغفري).

طويت رسالتها، وأقسمت أن أفعل شيئًا يليق بها، انطلقت إلى ظهران بجانب صفوان عند بضائعي، رائحتي عطر لا يضاهي رائحة زمردة، ولكنه جميل إلى حد ما.

وبدأنا نبحث عن زمردة، بعد انتهاء عملنا نذهب إلى الأماكن القريبة من الوادي، أي البلدان أقرب وأي القرى قد تكون سكنت زمردة.

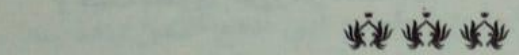

اليوم الرابع والعشرون من تشرين وأنا أبيع رفعت رأسي وإذا بطيف من الهواء استنشقته، هواء يحيي قلبي فدققت النظر، رأيت زمردة، نعم رأيتها.

زالت آلامي وقرت عيني ونبض فؤادي وذهبت علتي وشفيت جراحي، أهديت قطعة قماش إلى سيدة كنت أبيعها لها تسارعت خطاي نحوها، بل كنت أهرول إلى زمردة.

فناديتها لما اقتربت منها:

- زمردة، زمردة.

نظرت إلي، لم تبد أي ردة فعل.

- حبيبتي زمردة.

استدارت امرأة في الأربعين من عمرها:

- من أنت يا سيدي؟ ابتعد عن ابنتي.

- بل من أنت؟

وجهت نظري إلى زمردة قائلًا:

- زمردة، من تلك السيدة؟

بدأت أمسك بيد زمردة، وأجذبها نحوي، وهي لا تنطق فصرخت السيدة:

- دعها وابتعد.

التف الناس حولنا وصاحوا «زغفري الثمل... أين صفوان؟ أتتجرأ وتمسك بيد سيدة». وانهالوا علي ضربًا وكنت أسمع أصداء أصواتهم «عليك اللعنة يا زغفري».

الشتاء يجتاحني، أرتجف بردًا وخوفًا وقلبي يعتصر قهرًا، فتتألم روحي، حتى إن السماء حين تمطر كلما مر ماؤها على جسدي تجمدت قطراته، شتائي أقسى برودة من شتائها، أجلس بجوار الحانة أنتحب فأحب نفسي تارةً، وأكرهها تارة، ألومها تارة، وأشفق عليها تارةً أخرى.

لم يؤلمني ضربهم المبرح ولم يؤلمني سبهم، فتحت عيني والليل قد أتى، هرعت بجانب الحانة، وعدت الله ألا تطأها قدمي مرةً أخرى، ولكن زمردة قد تكون تزوجت بأحدهم ويبدو أنها استبدلت الجميع لم تستبدلني أنا فقط، زمردة نسيتني لغيابي عامًا. آه يا الله، أظن أن النساء خلقن من طين الجحيم.

وكانت هذه نتيجة لعدم تواريك وراء الحوائط الكثيرة التي أقمتها، لا أدري ما سر انبعاثك من خلفها إلى الخارج حال رؤيتك للضوء، أنا من فعل هذا ومن الواضح أني أدفع الثمن يومًا بعد يوم، ولعل هذا درس واضح لي، بأن أبقى في الداخل لا شيء في الخارج يكترث لي، حتى إنني أظن أن الملائكة حين تصعد بروحي إلى السماء ستحملها بداخل شيء لأنها روح محطمة وستدعها عند ربها حتى يجبرها لي بعد أن حُطِمتْ رغم إرادتي.

{صفوان}

(ثم إن العلل التي تصيب أجسادنا

تداوى بالدواء فما دواء علل أرواحنا؟)

أنا ترهة في هذا العالم، شيء صغير في هذا الفراغ الواسع، تمردت على العالم، وأصبح لي قوانيني الخاصة التي أتبعها، فتبذني فتمردت أكثر، بصفة عامة لم تكن قوانيني الخاصة أكثر راحة من قوانينه، ولكن التمرد نوع من الشكوى بدون شكوى، الشكوى بدون بكاء، العالم لا يشعر بي، فالأزهار لا تتفتح من أجلي، وصرخاتي لا تبكي السماء من أجلها، والحب لا يعترف بي، كل شيء يدعو للتمرد في هذا العالم، حين أنجبتني أمي أخبرتني أنها لم تكن تريدني بقدر من الجمال؛ لأن الجمال يضيع في هذا العالم، أنا لست صوفيًا أتبرأ من العالم وأتمسك بالله، فقط كل ما في الأمر أنا لا أعرف سوى الله وجميع ما سواه باطل.

ولدت لعائلة فقيرة في الحادي والعشرين من كانون، لحظة ولادتي احتضنتني أمي وهمست إحدى الجالسات «يا له من طفل مسكين!» فسخرت إحداهن «لدى أبيه خمسون ألف درهم وطفل مسكين!» عمتي أخبرتني بهذا الحديث كثيرًا.

وفي الواقع أظن أنني طفل منكوب منذ ولادتي، أبي كان يعمل لدى رئيس البلدة خادمًا، وكان يحمل أموالًا يوصلها من تاجر

في قرية مجاورة إلى رئيس البلدة، سطا عليه اللصوص وسلبوا المال منه، اتهمه القاضي بالاشتراك والمراوغة مع اللصوص ولم يحكموا عليه، قتل أثناء المحاكمات في عراك داخل محبسه، حادثة قتله بعد قدومي بشهرين.

تزوجت أمي برجل من بلدة بعيدة، فأسقط عنها لقب زوجة السارق، واحتفظت به منفردًا، كبرت ببيت عمتي السيدة نعمات، السيدة كانت تضع السم في الماء فوق سطح منزلنا، عللت لي ذلك بأن العصافير تزعجها حين تغرد، كانت سيدة سيئة الطبع، ومع هذا لم تؤذني يومًا سوى أنها حين تغضب (وهذا هو الشعور الدائم لديها) تقول:

- أتدري يا صفوان أنا أخاف منك كثيرًا، قدومك أخرج أبويك من القرية.

ثم تضحك حتى تكاد عيناها أن تخرج من وجهها.

❦❦❦

كنت ألتقي بأمي عدة مرات خلال العام. أخبرتني بأن أبي لم يكن سارقًا، وعدم إمكانية إثبات براءته لا يدينه، فعدم معرفتنا للأشياء لا تنفي حدوثها، وأن انبعاث الفجر لا يعني زوال الظلام،

ثم إنها أقسمت ببراءة أبي لي، وتمنت لو رأيته حيث إن عينيه تكادان تنطقان بشرفه، من المخزي بالنسبة لي أن الجميع لم ير عيني أبي صفوان الصادقتين؛ حيث إنهم لقبوني بابن السارق.

تركت عمتي في سن الثامنة عشرة، لم يسمح لي أحد بالعمل معه لخوفهم أن أرث فعلة أبي، حاولت تحذيرهم ولكن دون جدوى، حتى إنني اضطررت لأن أسرق؛ حتى أثبت لهم أنني لم أكن سارقًا، فأصبحت أسرق الطعام والمال وكل شيء، لم أكن أسرق إلا من أهل بلدتي.

في عامي العشرين أعيد فتح قضية أبي وفضح القاضي؛ حيث إن القاضي هو الذي اتهم والدي بالسرقة وليس رئيس البلدة، كانت ثغرة في خطته المحنكة، بالإضافة إلى دينار منقوش أهدي للتاجر وضع بالخطأ مع الأموال المرسلة مع الخادم، القاضي صرف المال بعد عشرين عامًا (المال المسروق) أرسل هذا الدينار مع المال إلى نفس التاجر لشراء بعض البضائع للقاضي.

الدينار فضحه، رئيس البلدة لم يشترك في المؤامرة على خادمه بل زوجته قامت بالأمر، خافت المرأة أن يفضح أفعالها السيئة بعد اكتشافها من قبل والدي فأوشت به، الخادم كان أمينًا للغاية، حتى أمي لم تكن تعلم بأفعالها.

انتهت القضية ببراءة المتهم المقتول داخل محبسه، الجيد في الأمر أن القاضي نال عقابًا شنيعًا، أما زوجة رئيس البلدة ماتت في حادثة قبل عامين، الحادثة كانت مروعةً، أفلت الحصان العربة التي كانت تركبها السيدة، العربة حطمت وسقطت السيدة أرضًا، أفلتت من الموت في العربة ولكنها لم تفلت من العربة التي دهستها، السيدة قطعت إربًا.

❦ ❦ ❦

بعد براءة الخادم نسيت البلدة القصة، خرجت من البلدة أبحث عني علني أجدني أو أجد جزءًا مني، وقد أجد شيئًا يبحث عني، ثم إن العلل التي تصيب أجسادنا تداوى بالدواء فما دواء علل أرواحنا؟! دائي وخيباتي وعلاتي كلها أصابت روحي، جسدي عن المصاب معافى وروحي بائسة، فأي طبيب يداويها وأي دواء أستطببه.

أريد أن أنتمي، فالأجساد تنتمي إلى الأوطان وخلقت بلا وطن فكيف تنتمي أرواحنا، تساءلت كثيرًا ريثما تجد روحي روحًا تداويها، فقد تكون للأرواح سبل لا نعرفها.

القوافل تأتي فأسرع إليها وأنزل البضائع فأكسب دنانير يومي، كنت أتساءل دائمًا أحي أنا أم في الجحيم؟ كنت أخاف أن أكون مت قبل أعوام ودفنت وأعاقب على جرائم اقترفت في حياة أخرى، ولكني لا أتذكر أني حييت يومًا لا هنا ولا من ذي قبل، تحريكك لعينك وانتشالك للأشياء وحتى مضغك للطعام بالنسبة إلي ليس بالضرورة دليلًا على أنك تحيا، قد يكون دليلًا على وجودك فقط.

تاجر من تميم عقد معي اتفاقًا على الانتقال معه إلى بلدة أخرى مقابل خمسين درهمًا، هذا المال مقابل الإقامة ثلاث ليالٍ وتكفلي معه ببضائعه، التاجر كان يناصفني أشغالي، إذا هممت لحمل شيء أمسك بنهايته فأزحزح يدي إلى البداية ونرفعها سويًا، شاطرني سهر الليل في الحراسة، السيد كان أشبه بصديق أو بالأصح هو كان بحاجة إلى صديق ورفيق لدربه فرفضت أخذ الدنانير في نهاية المدة المتفق عليها وبقيت معه.

ذهبت إلى تميم، البلدة كانت رائعة، الجميع أحبوني رغم عدم معرفتي المسبقة بهم، فأحببت الجميع، الأمر لم يستغرق وقتًا.

الليلة الثانية من مكوثي في البلدة، مر زوج زاهرة السيد عامر على تجارتنا، سألني عن زغفري وملم معي الأقمشة وتسايرنا في

أحوال البلدة وسير المسافرين وغيرها، العجيب في أمر ساكني تميم لم يسألني أحدهم إلا عن اسمي، لم أكن أعلم هل للجميع خيبات والكل يخفيها؟ أم أنهم على علم من بؤس الحياة فلا سبيل للمقاضاة على الماضي؟ عمومًا أسلوبهم كان يروق لي.

بعد عام من استيطاني في البلدة أعجبتني مالكة، فمالكة كظل طل إذا رأيته استظللت به.

في نهار الشمس فيه حلت بالأرض ضيفًا، حتى النجوم رحلت عن سمائنا، فنجم مالكة كان أبرق.

الغريب أن عيني مالكة كانتا شيئًا يجتاحها لم أستطع النظر إليهما مطلقًا، السيدة كانت رائعةً بالرغم من ذلك.

حتى إن تميم كلها أجمعت على ما أقول، وأصبحت متعلقًا بتميم وأهلها، حتى روحي بدأت في شفاء نكساتها، شاطرها زغفري معي، فأصبح المصاب متجزئًا بيني وبينه، وخف حملي، وبدأ ظهري بالاستقامة، فصرت أمشي بين العامة واقفًا، حتى ظننت أني للسماء ملامس، بعد أن كنت في الأرض غائرًا، عامان لم أخرج من البلدة مطلقًا، كان السفر يقوم به زغفري وحده حتى إني خفت أن أزحزح من البلدة فتيبست بتميم وأهلها.

يوم السابع من شهر كانون الثاني، أتت زاهرة بصحبة فتاة إلى زغفري، الوضع كان غريبًا بالنسبة إلي، زاهرة تجلب الأقمشة إلى بيتها، ليست الأقمشة فقط بل كل الأشياء التي قد تحتاجها، فامرأة تتزوج من السيد عامر خباز البلدة وأخيها السيد زغفري تاجر الأقمشة، هي امرأة مدللة، بالإضافة إلى أن زاهرة كانت وطن زغفري الأول، وهنا علمت سر بلدة تميم، كل منهم له موطن يسكن بداخله، بالإضافة إلى انتمائهم إلى وطنهم، يجدون لأجسادهم وأرواحهم أوطانًا.

بدأت أتحسس خبر مجيء زاهرة، كنت أراقب وجه زغفري علني أتلمس من ملامحه شيئًا، ولكن الأمر ليس بالسيئ الذي آلت إليه نفسي، في ذلك اليوم وفي تلك الساعة بالتحديد كنت أعلم أن شمس زغفري ستشرق من جديد بعد أن غربت، وقد خفت أن لا تشرق مرةً أخرى، أشعر أن الشمس قد غادرت تميم كلها يوم تزوجت هند ولم تأت إلينا حتى أتت زمردة، ومن الواضح أن الشمس قد تغيب بينما لا تبرح، ولكنها تحتاج فجرًا لتشرق مرةً أخرى.

تقدمت لخطبة مالكة، فيبدو أنني اقتربت كثيرًا، أردت الالتصاق بالبلدة وسولت لي مطامعي بمصاهرة أبنائها، لا، لم أكن مخطئًا، بالفعل لم أكن أريد الالتصاق قط، بل أردت أن أندثر من نفسي بداخلهم، فالالتصاق قد يفلتني يومًا منهم، بدأت

أقترب أكثر والاقتراب يجعلنا أكثر وضوحًا، فأبي لم يكن لصًا، وأمي سيدة شريفة.

ولكني سرقت ذات ليلة وأعدت فعل ذلك، وكنت أتعجب من أمي حين قالت لي ذات ليلة لما أخبرتها أنني سأنتقم من أهل البلدة: احذر يا صفوان أن تنتقم منك، احذر يا عزيزي أن توجه الضربة إليك أنت بدلًا منهم، وما رأيت أشد انتقامًا من أن تسحق الآخرين بنجاحك وسعادة يغنيك الله بها عما رأيت.

ولذلك علينا أن نكون أقوياء، وأن لا نُضرب بيد امرئ ضربتين: إحداهما بيده والأخرى بيدك أنت، علينا أن لا نتخلى عن مبادئنا لكي نطيح بأحدهم، فبعض الأخطاء لا تغتفر وخاصة تلك التي ترتكبها وأنت غضبان، قد تشعر أنه نوع من الاستسلام، ولكن مع مرور الوقت ستدرك كم تجاوزت ورأسك لم ينحن.

ولكن العائلة رفضت أن تزوج ابنتها لفتى لدى تاجر، الفتى لم يولد في تميم، ولن يرث فيها.

وبالرغم من سوء الحدث فإنه أحصن فعلتي، العائلة لم تدقق في أمري فقد رفض الأساس، فلن يقام عليه بنيان.

وقف زغفري مجردًا أمامي من أي حيلة لمواساتي بعد أن أخبرني بالأمر، ما زلت أذكر نظرة زغفري إلي، كان الخوف يجتاح عينيه فتبسم قائلًا:

- ستمر هذه الليلة، وسينتهي هذا الألم، أعدك بذلك يا صديقي.

- أتدري يا زغفري أخبرتني أمي يومًا بأن انبعاث الفجر لا يعني زوال الليل، أي أنه إذا آلت إليك النعمة لا تجزع من البلاءات المصاحبة لها.

- صفوان، فعلتهم أثارت اشمئزازي كثيرًا، كيف للإنسان أن يلتهي بالمال والجاه متغافلًا عن الروح التي تسري في الجسد، عن القلب الذي يخفق بالداخل؟

لم أستدر إليه، وقفت معلقًا نظري بالسماء، فربت زغفري على كتفي وتنفس بعمق بلهجة متأملة:

- انتظر انبعاث الفجر من الظلام.

- ماذا لو أتى الغد ولم يكن فجرًا؟

لم تمر الليلة، وبقيت أنا في هذا الألم، الأيام لم تمض كما أخبرني زغفري، تحاصرني، إنها تقف وتصيبني بالذعر، وما إن هدأت ترددت علي مرةً أخرى.

من عادتنا بعد الانتهاء من العمل نجتمع في دار بمحاذاة شجرة البلوط، بدأ زغفري بالحديث عن شجرة البلوط واخضرارها الدائم حتى في الخريف، تمنى زغفري أن يصبح مثلها وأن يثمر دائمًا، أعتقد أن كلماته استفزت السيد ظافرًا فقاطعه:

- ولماذا تريد أن تثمر يا سيدي، أين أغصانك يا فتى؟ كل تلك الفترة أعتقد أنك رجل وفي النهاية أكتشف أنك شجرة يا زغفري.

تجاهله زغفري تمامًا وبدأ يكمل حديثه، لكن السيد ظافرًا غير لهجته وأظهر الحدة بكلماته:

- الأرض والأشجار وحدها المثمرة في هذا العالم، أنت ثمرة، انتظر جفافك وموتك في صمت، ولا تتطلع كثيرًا، ستصفعك الحياة كلما تطلعت عاليًا، يبدو أنني حصان أعرج في بلدة الحمير.

هذه المرة لم يسكت زغفري، وأخرس السيد ظافرًا تمامًا، فاهي لم يفتح وقتها، كنت مع السيد ظافر في كل كلمة نطق بها.

السيد ظافر منذ تلك الحادثة لم يأت إلى الدار، الجميع لم

يجتمع من ليلتها، مات السيد قاسم وهربت زمردة بعيدًا عن تميم، ولحق بها زغفري ورحلتُ معه ولم نعد.

اللصوص أحاطوا بنا ليلًا، هاجمونا، فاحتمينا بالوادي، الوادي يبعد ليلة واحدة أو أقل، كانت خطواتنا بطيئة لأننا كنا نصطحب نساء وأطفالًا وبضائع، اعتقدنا أن الوادي مكان منخفض، بل أمثل مكان لنخبئهم به، ونقاتل رجالًا متفردين، اعتقدنا أنهم لن يستطيعوا رؤية القافلة مطلقًا ولكن كان هذا المنخفض هو الخطة الأبشع للتخلص منا.

لا تغتر كثيرًا بالأشياء، فالنار التي تمنحك الكثير من الدفء والضوء قد تكون لعنةً وتسبب لك الكثير من الألم، وقد تنهي حياتك، وبالنقيض الماء قد يغرقنا. أخبرونا أن العلة ليست بالماء، إنما العلة بأن الكثير من الماء كان السبب في ذلك، ولكنني أؤمن بأن بعض القطرات من الماء قد تخطئ طريقها وتعلق بجهازك التنفسي وترديك قتيلًا، فكل شيء له القدرة على أن يعطيك الحياة يستطيع أن يسلبها منك، ولتعلم أن قطرات الماء لم تخطئ طريقها بل تعمدت.

وبمجرد أن دخلنا الوادي لم يسمح لنا الوقت لخروج الرجال، حوصرنا في الوادي، أراد اللصوص أن يسرقوا أموال القافلة، ولما استدركوا خطتنا، أرادوا تلقيننا درسًا، ولكل من تسول له نفسه بالمقاومة.

حين صوبت السهام على الوادي، كنا نسمع صوت أحذيتهم المحتكة بالرمال من حولنا وكأنه صوت بوق الموت.

اجتمعت السهام في لحظة واحدة فوق الوادي، صنعت لي مرآة رأيت فيها كل من حل بالوادي متحصنًا، فبدأت أتأمل عيون الأطفال الباكية، ووجوه الرجال حتى إني في تلك اللحظة نظرت إلى وجوه النساء، الكل كان يحدق نظره نحو السهام، الجميع بدأوا برفع أيديهم إلى أعلى وسرعان ما تلتف أيديهم حول رؤوسهم ثم يبدأون بتكتل أجسادهم، بدأت أفكر في تلك الخطة التي يديرها العقل.

العقل في هذه الليلة كان أشبه بالقائد الذي يحاول إنقاذ جنوده المنهزمين بالفعل، وبدأت أفكر في مغزى تلك الخطة التي يديرها، هو يعلم بأكثر الأشياء أهمية بالنسبة للجسد.

أولًا قام بحماية الرأس من خلال التفاف اليدين حولها، كنت أعتقد أن الرأس هو الجزء الأهم من الجسد ولكنني كنت مخطئًا،

حماية القلب قام بها بشكل رائع. القدمان المضمومتان بعضهما إلى بعض من جهة، الرأس المغطى باليدين من الجهة الأخرى، أيكون القلب بهذا القدر من الأهمية بالنسبة للعقل؟!

وبسرعة مذهلة، السهام أنجزت مهمتها، وكأن السهام كانت تبحث عن المختبئين منا فتصيبهم، لا أذكر يومًا أني خفت من شيء إلا وأصابني.

زغفري أيضًا أمسك بيد زمردة، توقف تفكيره تمامًا، ربما أراد أن يخبر السهام بشيء ما، وبالفعل السهام حيت شجاعته وتخطته هو وزمردة.

ورحل اللصوص عنا، أو ظننا ذلك، الوادي جاف، أردنا الماء من سهل بجوار الوادي، خرجت زمردة مع أخويها وأنا وزغفري، العائلة الوحيدة التي نجت في الوادي بأكملها، لم يصب أحد منا، ولكن اللصوص لم يرحلوا عن الوادي، اعتقدت أنهم يريدون ناجين لرواية ما حدث، وكان يكفي بالنسبة إليهم أن يكون ناجيًا واحدًا فقط.

بمجرد خروجنا اضطررنا للافتراق، اختارت زمردة أن تبقى مع زغفري، عبرت عن ذلك بأن ركضت في الاتجاه الذي ركض به،

ركضنا باتجاهات أربعة مختلفة بخيلنا لتفرقة اللصوص، كنت أعتقد أن زغفري سيبقى مع زمردة لحمايتها، هي تحتاج الحماية كمن في الوادي تمامًا، خرج الرجال الناجون من السهام ثائرين لمن قتلوا، أنهينا على جزء من القتلة، ورجع زغفري كالبرق يبحث عن زمردة، اعتقدت أنها دخلت الوادي ولكنه خبأها عند صخرة، لما رأيت الوشاح على الأرض ملقى، وعلمت بوفاتها، حين نزع عثمان وشاحها من يد زغفري قائلًا بصوت منخفض:

- تركنا لك زمردة فاترك لنا وشاحها، سنحفظه كما لم تفعل معها.

أقسم زغفري أن لا عودة إلى تميم إلا... وتمتم بكلمات لم أسمعها، فرافقته إلى حيث لا أدري.

❦❦❦❦

لم نمكث أسابيع بعد خروجنا من البلدة حتى حل الشتاء بنا، فأصبح البرد عدوًا آخر نواجهه، كنت أجلس بجوار زغفري عند مطعن ببلدة زهران، جاء شيخ ناولني غطاء تقاسمته مع زغفري فصاح شاب أحمق:

- لا تعطوا المتسولين أموالكم.

فرد السيد عمران:

- صه... لا تبتئسا، من أي بلدة أنتما؟

تدخل الشاب مرة أخرى:

- سيد عمران، الصدقات أحق بها العاجزون عن الكسب.

قاطعه السيد عمران على حد ذكر الشاب:

- أمسك عليك لسانك وإلا قطعته، عابرو سبيل، أشعر بالخجل من جلوسكما وسط الأزقة وفي البلدة مئتا بيت وعشرة مساجد.

شعر زغفري بالقهر، كان عزيزًا في قومه، فأرسلني زغفري بمظروف إلى زاهرة، وحملت معي البضائع حين عودتي إلى ظهران.

سكنا بزهران، لا أدري لماذا هوت أفئدتنا إليها، ربما زغفري أراد أن يثبت لذلك الشاب أنه ليس بمتسول، بالنسبة إلي كانت زهران بلدة كأي بلدة أخرى ولكن مالكة يفصلني عنها عشر ليال، ومن جهة أخرى علني ألتقي بهذا الشيخ الذي يدعى السيد عمران وأقبل رأسه وأشكره على غطائه لنا في تلك الليلة الباردة، أحببت هذا الرجل كثيرًا.

بعد استقرارنا ببلدة ظهران، ازدهرت تجارة زغفري مرة أخرى، ولكن بدأ يظهر عليه الفقد لزمردة، لم أستطع أن أوقف زغفري عن الانتحاب، حاولت فقط أن أواريه عن الجميع، لعلة في نفسي حتى لا يسأله أحد عن سبب بكائه، لم أرد أن يشفق عليه أحد، أردته قويًا مهابًا كما التقيته، لكن زغفري سلك طريقًا مكن به الشيطان من كلينا.

❦ ❦ ❦

بدأت أتحسس أخبار مالكة وأهلها وقد وكلت إلي التجارة كلها، زغفري نهارًا نائم، وليلًا يسكن الحانة، للشيطان أساليبه الخاصة في خداعنا، سولت لي نفسي بأن لي حقًا في تجارة زغفري، وأنني ساعدته كثيرًا، وجمعت معه الأموال جمعًا، لم تكن هذه الحقيقة مطلقًا، المال مال زغفري وحده، وأنا مجرد فتى يعمل معه، ولكي أستطيع فعل هذا لا بد من أن يظل زغفري ثملًا، علل لي الشيطان أنني فعلت كل ما في وسعي ولكن لا سبيل من انتشاله.

وأقنعني أن وجود زغفري بجانبي وهو يرتاد الحانة قد يودي بتجارته التي أحفظها له، فصرفت زغفري عني وعن فعلتي

وذكرت له تعليل إبليس.

في الحقيقة نحن نرتكب الجرائم، الشيطان فقط يبرر لنا أفعالنا، كنت أدفع له مصاريف إقامته في الحانة، أعتقد ليبقى هناك.

أصبحت سيدًا بزهران، سمعت عائلة مالكة بهذا بل أوصلت إليهم الأمر، وأصبح مرحبًا بي كفرد من العائلة.

انطلقت إلى زغفري، وبشرته بكون مالكة ستصبح حليلتي، ولكنه سخر مني وقد أثمله الشراب، وزاد وكرر:

- من روى زهرة لا يقطفها يا فتى، ماذا فعلت لمالكة حتى ارتضت بك زوجًا، أتدري يا صديقي ما الشيء الذي يجتاح عينيها، إنه الغرور.

نهرته وتركته في حانته مغادرًا إلى منزلي.

الليلة كانت مظلمة، وكنت أمشي بين الطرق، بدأ شيء في الظلمة يباغتني ويظهر ظل رجل ويختفي فزعت منه، ناداني من خلفي، استدرت سريعًا خائفًا، عرفته، رجل يدعى سمرقدي من بلدتي، سرقت منه خبزًا، أراد أن يبطش بي انطلقت مسرعًا، الليلة معتمة ولكني أحفظ الطرقات، إقامتي في البلدة زادت عن عام، ثم تمهلت قليلًا في مشيتي، رأيت امرأة تمشي بمحاذاتي وبيدها فتاة صغيرة، استغربت كثيرًا من سبب خروجها في تلك الساعة المتأخرة، نظرت إلي الفتاة، عرفتها.

هذه المرأة سرقت منها أموالًا، ثم اتجهت إلي المرأة وخلعت الوشاح، وأرادت أن تبطش بي، فزعت منها، وهربت، وكلما مررت بشارع أجد من يريد أن يبطش بي، حتى ظننت أني ببلدتي ولست بظهران، وفجأةً ظهر زغفري كان يحمل قنديلًا، أنار لي الطريق، فبطشت يدي بالقنديل الذي يحمله، ثم فزعت من نومي.

أخذت أفكر كثيرًا بكلمة زغفري «من روى زهرة لا يقطفها»، هو يقصد أنني لم أكن زهرة مالكة التي اعتنت بها حتى تزهر، فهي لم ترني ولا تعرفني هي فقط تعرف ما أنا عليه، ولذلك هي تبتر جزءًا مني وتحتفظ بما يروق لها، وهذا يعد إنهاءً لي، لن تتيرني، ستستتير بي حتى أنطفئ، ثم تركلني بعيدًا عنها.

استغفرت الله كثيرًا، وبعثت إلى عامر لطلبه، وعلمت أن زمردة فقدت ولم تمت.

❦ ❦ ❦

في مذهب عامر اشترك زغفري في خيانتي؛ لأنه لم يذكر لي السبب الحقيقي وراء رفض مالكة، أقنعني أن العائلة ترفض، حتى لا أجرح بطرف السكين، وبدل أن أجرح قتلت بكامل نصلها، كان طرفها هو المؤذي لي، فخبأه عني وما انتبهت أنها غرزت بي، علينا قول الحقيقة كاملة دون نقص؛ أو حذف؛ أو تغيير لملامحها، عليها أن تكون واضحة.

وقانون عامر كان واضحًا في الخيانة، عليك ألا تصرح بشيء مطلقًا لأحدهم إلا إذا كان صادقًا، وإلا أصبح تلاعبًا، وأن الآخرين ليسوا مجالًا لاختبار مشاعرك؛ أو أن تكتشف نفسك بهم وبمشاعرهم، كل ذلك يدعى خيانة، فكن رائعًا أو لا تكون.

❦ ❦ ❦

لماذا لا يعد الضيف مشروبًا لنفسه في بيت مضيفه، ولماذا ترتدي العروس رداءً أبيض، ولو ارتدت الفتيات كلهن رداءً أبيض متشابهًا والعروس رداءً مختلفًا ما دون الأبيض، ما أقوله لا ينافي العقل أو الفطرة، وقد تكون أقوام فعلوه من قبلنا، أو بعض البشر في مكان غير الأرض اعتادوا ذلك، أو سيأتي من يفعله، ولكنه غير مقبول بالنسبة إلينا، لأننا اعتدنا ذلك، هل تدرك الآن معنى الاعتياد؟! وكنت أسأل نفسي لماذا يوضع الحب في أبيات العذاب والحيرة، ويجمع بينه وبين الشوق والحرمان، لأن الحب الحقيقي يتضح، حين لا نعتاد الفراق، حين لا نعتاد أن نبتعد.

واكتشفت في ذلك اليوم أن قلوب الجميع ليست متشابهة، الحب لديهم ليس بالشعور الذي نشعر به، مالكة تحب ثوبًا خاصًا، من ارتداه أحبته، هي لا تحبني، هي تحب شيئًا ما، لم يولد معي، بل صنعته في هذا العالم، وما تصنعه في الحياة، قد تفقده بها، علينا تقبل أن البعض يحب بشكل خاص به، علينا معرفة أن للحب وجوهًا كثيرة عند البعض.

سألني زغفري عما حدث خلال فترة إقامته في الحانة فأجبته عما حدث لي:

- لا أدري يا صديقي عن الأيام الماضية، لكني أعتقد أني ابتعدت عن النور قليلًا.

- ولم؟

- صوت ما جذبني من الظلمة.

- وكيف عدت؟

إن الله لا يضيع عباده.

أنهينا تجارتنا في ذلك اليوم، ولكنني كنت خائفًا أن أستيقظ وأذهب إلى التجارة ويذهب هو إلى الحانة، أردت أن يستريح صديقي فقلت له:

- لطالما أخبرتني يا زغفري أننا إذا متنا على الأرض توجب علينا إيجاد أحبتنا لنخلق بداخلهم من جديد.

- ولكنني لم أمت يا صفوان..... فقط أحتضر.

- إذًا هي سكرات وتموت.

- أهلكني الله يا صفوان ماذا عن جزء زمردة بداخلي، وعدتها ألا أسكت صوتها أبدًا بداخلي إن ضاعت أو رحلت، أعانني الله أن أنازع من أجل الحياة.

فأردت أن أبث شيئًا بداخله أضمن به عدم عودته إلى الحانة، فأخبرته أني سأشاركه في البحث عن زمردة.

❦ ❦ ❦

اليوم الرابع والعشرون من تشرين انطلقت أبتاع أقمشة من بلدة مجاورة، وتركت زغفري عند تجارته، عند عودتي سمعت بخبر زمردة، انطلقت أبحث عن زغفري حتى وجدته بجوار الحانة، كان ينتحب بكاءً جلست بجانبه واحتضنته وقبلت رأسه، وأقسمت أن لا أمكن الشيطان مني ومنه مرةً أخرى، أخبرته بما حدثني به أبو مهران ليلة انتحاره، حيث إن السم قتل زوجته في عدة أيام متوالية، لذلك لم ينتبه أحد في أمر وفاتها، في الليلة الأخيرة أمسكت بيده لتخبره أنها تجمع بين السعادة والحزن في هذه اللحظة، انتظر لتعترف له بخيانتها، وأنها من كانت تكتب إلى قاطع الطريق أخباره، وتتقاسم معه الأموال، أراد معرفة سبب

خيانتها، ولكنها لم تقل ذلك، لم تنطق بالأمر الذي أراد معرفته منها، كان يضع في خطته أنها تخبره بالخيانة فيخبرها أنه هو من قتلها، ليثأر منها، أخبرته أنها تشعر بالحزن لأنها ستتركه وحيدًا، لن ترافقه الدنيا، وتشعر بالسعادة لأنها قضت عمرها بجواره، وستموت بين يديه، كان أبو مهران يتردد على الحانة بين الحين والآخر أثناء زواجه، عرف امرأةً بغيًا هناك، أغرمت بأمواله، كان يقول عنها بأن بعض النساء قد يجبرهن الفقر على أفعال لا يردنها، وأثناء هذيانه في الحانة كان يخبرها تفاصيل رحلاته، واستطاعت إقناعه بخيانة زوجته، اكتشف خيانة البغي بعد أن قتل زوجته، اكتشف الحقيقة متأخرًا، ثم إن المرأة التي لم تحفظ شرفها، تخون أي شيء، الفقر لا يبرر مفاسد الأخلاق، كل ما في الأمر أن المال قد يستر مفاسدك، والفقر يفضحها، وأخبرته أن بالداخل لن يجد من ينصره، بالداخل سيؤدي بنهايته كما أنهت بصديقه، وهدأت مخاوفه، وأخذت أفكر في أمر زمردة، وعلمت أننا سكنا زهران لأن زمردة كانت تسكن بها، هوى فؤاد زغفري إليها.

في حين لو أن أبي كان حيًا وبقيت ببلدتي، لورثت مهنة أبي وصرت الخادم صفوان، واليوم أدعى سيد صفوان.

{عمران}

(أخبرني ما فائدة امتلاكك لمقومات الحياة

وأنت تفقد الحياة نفسها؟!)

الخامس والعشرون من تموز، أتنقل بين الحقول أتكئ على غصن شجرة، الطبيعة تلهمني منذ كنت فتى في العاشرة، وأستند عليها في فهمي للأمور مع أن أبي كان نجارًا، يسكن ببلدة رامان، تركته في دكانه مع شقيقيّ ورحت أتفكر في أسرارها، تشغلني كثيرًا البذور التي تدفن في الأرض ثم تنبت منها الحياة كلها، الثمار التي تؤكل، الأشجار التي تقوم عليها مهنة أبي، حتى الأوراق التي يتغذى عليها الدود، أي أن الحياة تنبت من البذور التي تدفن، فابحث عن بذرة جيدة تدفنها بداخلك، ولكن ماذا إن كنت أرضًا جدباء لا تنبت ولا تثمر، ماذا إن كانت السماء لا تسقينا ماءً ننبت به.

خلقت مزارعًا أحببت اخضرار الأرض، والثمار التي تنبت، بل أنتظرها وأراقبها، كنت على علم بمواقيت الزراعة وفنونها.

كان اتفاقًا معقودًا بين أبي وأخيه على زواجي من ابنته عامرة، كان اتفاقًا موفقًا بالنسبة إلي فأنا تيمت بها، شعرت أنها خلقت لي، الحياة تهديني إياها، ولكن ماذا إن كانت الهدية تأبى أن تصل، أخبرتني ببؤسها الشديد من هذا الاتفاق وأن علي أن أرحل.

كان قرارًا محطمًا بالنسبة إلي، وعلمت أن ابتساماتها لي ما كانت إلا لأنني أبتسم لها، حيث يوجد فرق شاسع من تبسم وجه أحدهم حين التقاك وبين أن يتبسم لك، افتعال الأمور لا يدل على صدق النية، ولو أنها تركت وجهها عابسًا ما كنت بعثت إليها رسالتي..

(إلى عامرة، تساءلت بعد قراءتي رسالتك، كيف استطاعت يداك أن تخط الرسالة، وكيف مرت عيناك عليها، كيف استطعت أن تشي بي عند قلبك لتحملك خطاك على تسليمها إلي، كيف كنت تتنفسين بهذه السهولة، حتى إنني في هذه اللحظة أختنق والهواء يملأني، كيف كان حالك وأنت تكتبينها؟ وإني لراحل بعد قراءتها والسلام).

ورحلت عن بلدتي وأصبحت معلقًا بين كل شيء ونقيضه، بين الحب والكراهية، بين الانتقام والمسامحة، بين الحياة والموت، فأنا لا أنتمي إلى الأرض، في الحقيقة لا أحد ينتمي إلى الأرض، أرواحنا لا تنتمي إلى الفناء.

ابتأست كثيرًا بنفسي، وحملتها كل ما حدث لي، اشتريت مزرعةً على حدود ظهران ورامان، ومكثت فيها أنتظر أي أمر قد يحدث، حتى إنني ما عدت أنظر للمياه حتى لا أرى فيها عينيّ وهما تنظران إلي، لا أريد رؤية وجهي العشريني المتجعد، خيباتي تنعكس لي كلما أطللت بوجهي فأشفق على نفسي.

❦❦❦

جميعنا يعلم أن الحياة خلقت لنا، وأن علينا أن نحيا ما دمنا أحياء، لكن لا بد من أن يقنعك أحدهم بهذا، بل يجعلك تؤمن بذلك. السابع عشر من تشرين الثاني تزوجت صالحة، أخبرتني أن الحياة لا تروق لها إلا معي، وأنني سر من أسرار جمال هذا الكون، ابتسمت ناظرًا إليها قائلًا:

- الكون كله، اكتفي بكوني جميلًا في الأرض.

- أعتقد أن جمالك في الأرض وحدها لا يوضح ما أحمله لك، اكتفيت بك في كل الأزمنة وفي جميع المواقيت حتى إنني أؤمن بأن مكوثنا على الأرض مُنقضٍ، أردتك أبديًا.

نظرت إلى وجهها الجميل وتحسست ابتسامتها، سبقتني حديثًا:

- أتدري أنني لا أدري ما سر ابتسامتي حين أراك، وكأن كل جسدي يرحب بك، كل ما في أحبك عمران.

في ذلك اليوم بالتحديد، أحببت الحياة كثيرًا، أردت أن أحيا.

❦ ❦ ❦

رحل عام بعد عام وأثمر بستاني، واخضرت مزرعتي، ولكني لم أنجب ولدًا يأكل من ثماري.

في سن العشرين إلى الثلاثين لم أشعر بمصابي، من الثلاثين إلى الأربعين تفهمت عدم إنجابي، وضقت بالأمر ذرعًا في سن الخمسين من عمري، شعرت بانقضاء أيامي دون فتى أعلمه فن

زراعتي وآتمنه على نخلاتي، لا أمتلك فتاة تعد لي طعامًا ولا تشاطرني حديثي، حتى إن صالحة تمنت ذلك بشدة ولكن دون إفصاح لي.

حين بلغت الثانية والخمسين، وضح شيب رأسي، وزاد التفاخر أمامي، فبعض البشر لا يشعرون بنعمتهم إلا بالتباهي بها أمام فاقديها، فأردت الزواج بأخرى علني أنجب من يرعى كبرنا، ولكني لم أجرؤ أن أتمتم بالأمر لصالحة، لن ترفض مطلقًا، أعلم بحبها تجاهي ولن تعارض ما أظنه سبيلًا لي. واستغلالي لهذا الأمر كان الأسوأ، وبالرغم من ذلك لم أستطع إخبارها ودعوت الله حتى أجد مخرجًا.

مرضت صالحة مرضًا عضالًا، وبدأت أستشعر البؤس من جديد، أستيقظ صباحًا، أذهب إلى مزرعتي، وينقضي يومي، الأسبوع الأول لم أحصل على غداء خلال عملي، إذا انتهيت أذهب إلى بيتي وأتناول طعامي، ثم أخبرت خادمي بشعوري بالجوع خلال يومي، فعاد الطعام يأتيني مرة أخرى، وكان ابتئاسي واضحًا من بعض الأمور ولكن سرعان ما استجاب الخدم لمطالبي.

تفكرت أن مرض صالحة حين أخبرني الطبيب بصعوبة شفائها، لم يكن ابتلاء فقط بل حمل معه العطية لي، ثم إن موتنا لا مفر منه، من البديهي ستغادرني صالحة يومًا أو أغادرها ويبقى الآخر في الحياة وحيدًا.

ثم لو كتب لها المضي أولًا، ولكني في العمر أصبحت متقدمًا، لكان الأمر أكثر تأزمًا، ففي كل ابتلاء نعمة، وكان هذا ابتلاء لا مفر منه، ونعمته في كوني في العمر غير متهالك، وانحلت عقدتي من أني لا أستطيع أن أحزن على صالحة بزواجي بغيرها، كنت زوجًا وفيًا إلى حد معقول.

مرت أسابيع على مرض صالحة، وزاد حزني عليها ممزوجًا بسروري بولدي المنتظر.

ومع كل يوم يمر بمرض صالحة، يخبو قنديل الحياة بي شيئًا فشيئًا، حتى إذا كاد أن ينطفئ، أخرجت رسالة عامرة وقرأتها مرةً أخرى..

(عند عقد اتفاق يتوجب حضور كل الأطراف، ويخل الاتفاق بعدم حضورنا، أشعر بسوء الحياة إذا اجتمعنا، فليرحل كل منا عن الآخر، لربما يروق لنا العالم).

هرعت إلى غرفة صالحة وأيقظتها.

- كيف حالك عمران؟ قلبك يرتجف؟

- ما أدراك بخبري؟! جئت أقصه عليك.

- القصة تصيب قلبي، أشعر دائمًا بك.

- قبل دخولي غرفتك، قرأت رسالة عامرة، أخاف عامرة كثيرًا، أخاف بأس الناس بي، أخاف الحياة كثيرًا، ثم إني ارتكبت جريمة ما بداخلي.

القضية أننا لم نقتنع بعد بنزولنا من الجنة، وشغفنا بها يدفعنا لممارسة الحياة وكأننا بها، ثم إن جنة الله في الأرض أن تملك روحًا أحببتك، وهذا كافٍ للغاية.

اكتفِ حين يستيقظ أحد لأجلك كل يوم وتستيقظ لأجله.

اكتفِ حين تفعل الأمور التي تريدها دون أن تطلبها.

اكتفِ حين يرى أحدهم النور بعينك.

اكتفِ حين يحب شخص ما الحياة لأنك بها.

اكتفِ حين تملك روحًا أحببتك.

إذا امتلكت من تكتفي به، فأنت تملك الحياة كلها وما ينقصك تذكر بأنك ما زلت على الأرض، أخبرني ما فائدة امتلاكك

لمقومات الحياة وأنت تفقد الحياة نفسها؟! وتذكر بأن تباهيك بالنعمة أمام فاقدها نوع من الجرائم التي يرتكبها البشر، والتي تفتح للشيطان بابًا للتدخل والتناقش معك في ماذا ينقصك في هذه الحياة، ويشغلك بما لا تملك فتزهد فيما تملك.

❦ ❦ ❦

ولم يشفع لي ذلك، ألم أكن للدنيا مالكًا، وأذكر أنني لم أكن في الحياة راغبًا، ولما التقيت صالحة أصبحت للعالم ضاحكًا، وكيف كانت مفرحتي إذ أردت استبدال ذي النعمة بتلك.

ألم أدر أن لا أحد يكترث بإشراقة عيني في الصباح غيرها، كم كانت فكرتي نادمة، ونفسي طامعة.

وأخذت أدعو الله بشفاء صالحة، كما أنه لا يجب علينا تأويل أقدار الله لصالحنا ربما كانت دعوة صالحة ذات يوم بأن يحفظني الله لها.

❦ ❦ ❦

القساة هم أكثر الناس رحمة، ثمة شيء أصابهم، ثمة خيبة أطاحت بهم، ابحث عن ثقب الرحمة بداخلهم وارفق بهم، فبعد أن كنت قاسيًا لفقدي، أصبحت أجوب الأرض برحمة أنزلها الله بقلبي بعد شفاء صالحة.

في اليوم السادس عشر من شباط، سمعت صوت أرنب بري بالقرب من البئر القديمة عند مزرعتي، علمت بوجود شيء ما داخله، أخذت حبالي وانطلقت أنظر داخله، ذُهِلتْ عيناي كون شابة ملقاة بداخله، نزلت إليها وجلست بجانبها أتأمل نومها الهادئ داخل بئري.

أخذت أنظر إليها، أتجول في تقاسيم وجهها الحزين، كانت جميلة إلى حد الروعة، أمسكت رسالة بيدها، رسالة إلى نفسها وأخرى بجانبها، أولاهما كانت تحكي عن شاب تنتظر قدومه، والثانية عن عائلتها، فلملمت أوراقها وذهبت بها إلى صالحة، وكأنني أحمل لها هدية من السماء.

وحين استيقظت ريحانة وعلمت بعدم معرفتها لشيء، دفنت الورقة الأولى داخل البئر مرةً أخرى، لأنها أرادت ذلك، هي تريد أن تحيا من جديد فاستجبت لمطلبها، وتركت الورقة الأخرى لها لتبعث بداخلها أملًا تنتظره.

وفي الحقيقة دفنت الورقة الأولى لأدفن عائلتها للأبد، أردتنا عائلتها فقط، لا أريدها أن تنتمي لغيرنا، وتركت الأخرى، خفت أن يفتن أحد بها ممن يراها، فهي تؤثر أي قلب يلاقيها، أردتها أن تنتظر مجهولًا قد لا يأتي، في النهاية يبقى الإنسان أسيرًا لمطامعه، تذكر أن امتلاكك للأشياء يكمن في تركها تعود إلينا.

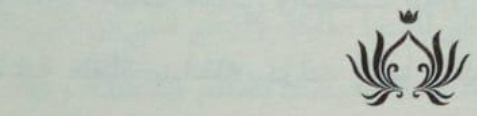

{زمردة}

(لما رأتني عيناه أشرقتا،

أتشرق الشمس بأرض غير أرضها؟!)

في اليوم الرابع والعشرين من تشرين، ذهبت مع السيدة صالحة إلى ظهران، قد مضى عام على مكوثي معهما، وأصبحت أكثر التصاقًا بها، عند اقترابنا من تاجر الأقمشة، أصبح قلبي يخفق مضطربًا، اقترب التاجر مني، والله كادت عيناه أن تكونا قطعة من الفردوس، جذبت رداء السيدة صالحة وناديتها أمي، يبدو أن شيئًا ما أصابه من كلمتي.

كنت تائهةً بداخله علني أعثر علي به، وجدت به شيئًا يشبهني، ولكن السيد لم يسمح بأن أطيل النظر بعينيه الرائعتين وأمسك بيدي، انهال عليه الملتفون حولنا، أصابتني غصة فابتعلت روحي، أردت التمسك به دون جدوى، أبعدوني عنه، فقدت قدرتي على مد يدي تجاهه، السيد بمجرد إفلات يدي نظر إلى الأرض، واستسلم تمامًا، أدركت أن جمال اكتمال القمر يشبه اتساع عينيه.

ركضت باتجاه المزرعة أبحث عن السيد عمران، رحت أخبره عله ينجدني، لكن السيد لم يكن في المزرعة، جلست منهزمةً على

الأرض، أمسكت بوردة التوليب، بدأت أتذكر، كانت هذه الورود التي زينت الرسالة الأولى التي بُعِثتْ إليَّ من سيد يدعى..... بت أذكرها، وكأن ذاكرتي بي أشفقت.

نعم بدأت أتذكر يوم أن بُعِثتْ لي هذه الرسالة، كان نفس الرجل الذي رأيته اليوم، وبدأت الذكريات تتزاحم كل منها تود الاستيقاظ أولًا.

أدعى زمردة الابنة السادسة للسيد قاسم تاجر الذهب والجواهر ببلدة تميم، لا يبيعها فقط بل يصنعها أيضًا، كان يكبرني أربعين عامًا، والفتاة الأولى لأمي السيدة حسناء، أشقائي خمسة: ناصر؛ عثمان؛ عامر؛ ثامر؛ وخالد.

تعلمت وزن الأمور قبل فعلها، وقيمة الكلمات قبل النطق بها، غير أن العالم كان يخيفني دائمًا، يأخذ أشيائي يسلبها مني، الكثير من الأشياء التي أحببتها تختفي دون أن تودعني.

كنت الفتاة المدللة لدى والديها، والصغرى بين إخوانها، لا أذكر يومًا أن شيئًا ما نقص خزانتي، يقول أبي أن كل الحلي الذي يصنعه مستوحى من طيفي، وكان يذكر لي أن للإنسان روحًا، وطيفًا، ونفسًا.

ولكن ماذا إن لحق بي طيف أحدهم، أو بالأحرى لحق طيفي بطيف أحدهم، ماذا إن كان جمال العالم جسدًا في رجل يسكن بالبلدة التي أسكن بها، ماذا إن كانت عيناه الرائعتان يتدلى الحسن منهما، وماذا إن سكن هواه بالقلب واستعمر.

الشعور الوحيد الذي لم أستطع تفسيره هو الحب، كيف نحب؟ ومتى؟ وأين؟ بل السؤال الأصعب لماذا زغفري دون غيره؟

كان علي أن أتسلل إلى زغفري من النواحي المحيطة به، وليس منه، كان مصمتًا إلى حد أنني لم يمكنني الولوج فيه، كانت نفسه غائبةً، وروحه متعبةً، وطيفه منطفئًا، الكثير من الأمور عرفتها من زاهرة، لم أرسل رسالتي عبثًا، لما رأتني عيناه أشرقتا، أتشرق الشمس لأرض غير أرضها؟!

الغلاف الذي نحيط به أشياءنا، الأطعمة مغلفة بأغلفة متفاوتة في السمك والحدة، كل غلاف بحسب ما يكمن بداخله، أما زغفري فكان الشوك يحيطه، أرضه شائكة، كانت الأشواك تشوكني كلما دنوت منه، وهذا لم يرجعني عنه، كنت أؤمن أن روحًا رائعة في الداخل، كان علي أن أصل إليها.

كل منا يمتلك أسطورةً ما بداخله، مغلقة بشفرة، لا يحمل حلها إلا شخص واحد، يستطيع إيجادك، يستطيع تحويلك إلى شخص آخر، تكاد تلهم العالم معه، تميم كأي بلدة عادية، لم يستطع زغفري إدراك ذلك، لأنه عجز عن فهم مسمى الحب الحقيقي، ولهذا استطعت الولوج بداخل زغفري، لأنني أحببته.

بعدما استلمت رسالته من زاهرة، ورقة خطت من أجلي، مراده ابقي بجانبي وهذه مخاوفي، فنسجت له (زغفري) على منديل أبيض وبعثته له، لم تكن هديةً كما ظن، كان عهدًا بالقبول بالأمر، وتنبهت أن الصمت لا يطلق على كونك لا تتحدث فقط، بل يشمل عدم الفعل، وعدم الشعور، أي أنه يشمل انعدام أن تكون، أنت صامت عن الحياة يا زغفري، الحياة بأكملها.

- جاءني هامسًا إلى ضفة النهر:

- لماذا تتمسكين بي؟

- لأنك ألهمتني، أشعر بالحياة معك.

- وكيف ذلك؟

- الشمس تشرق نهارًا، والليل يسكنه القمر، الورود تتفتح في الربيع، العالم يبدو رائعًا، رأيت الجمال بدونك، وحين التقيتك شعرت به، حيث يوجد فرق كبير بين شعورك بشيء ورؤيته، فثمة أشياء ترى لا بريق لها، فبريقك ينير العالم، ولتعلم أن هذا البريق من حولك ما هو إلا بريق عينيك، فكل لحظة قضيتها معك كانت الأجمل، يبدو أن العالم اختزن جماله بداخلك، فوهبك الله فرحة كفرحتي حين ألقاك وكفاك همًا كهمي حين ترحل.

- زمردة، لا أدري لماذا هذا الحزن يسكنني، يعزلني عنك، بل عن العالم، هل الأمر يستدعي هذا القدر من الحزن؟!

- احزن يا زغفري، دع هذا الألم يخرج من قلبك، ولكن قاوم أن تنسى نفسك في هذا الحزن كثيرًا، وعلى العالم أن يحترم أنك حزين.

كان زغفري لي كغصن شجرة بها أوراق خضراء، وزهور قرمزية تظلني، هو ضوء تخللني من خلال أغصان تلك الشجرة، يتمثل لي كجذعها الذي أستند عليه في جلستي، أي أن زغفري هو الطبيعة بالنسبة إلي، كلماته لي لا تغادرني، وأفكاره تلهمني، كان يعتقد بأن هذا الجمال إحساس يتخللنا، امتلاكك للشيء لا يكسبك صفاته، فعند مرورك على حديقة تحتوي زهرة بنفسجية، ستنظر للزهرة إن شعرت بجمالها تركتها، وإن رأيت جمالها قطفتها، وهنا اعتقادك بامتلاكها أنك امتلكت ما لم تستطع الشعور به وهذا خاطئ تمامًا، المشاعر الصادقة لن تستطيع لمسها، إحساس يتخللك، فيبدو وجهك أكثر نضارة، ثم أشار إلى وجهي قائلًا: كوجهك تمامًا.

طال غياب زغفري عني عدة أيام، فذهبت إليه عند أقمشته، وهو الذي يتنبه إلى كلماته معي، يعنفني في الكثير من رسائله، كانت إحداهن تتمايل وتضحك بصوت لين، وكلاهما صفوان وزغفري يريها الأقمشة، بل ويتجاذبان الحديث معها، تراجعت عنه، لماذا أعين الرجال لا ترى، لماذا لا ينجذبن إلا للسراب، تركته حتى أتت زاهرة إلي تسأل عن غيابي، فبعثت له..

(غنائي مر، ولا أستطيع التمايل أثناء الحديث معك، لم أدرك بمدى سوء غير اليوم).

بعث زغفري لي مظروفًا لم يزين بورد التوليب..

(إلى الرائعة زمردة..... سلام من الله يملأك، أعلم بخفقان قلبك، أكاد أشعر بنبضه، أغير من وريقاتي التي تمسكينها بأناملك، وتشغفين بما في داخلها، تنظرين إليها بعينيك البنيتين اللتين سيفتن بهما العالم إن رآهما، تهتمين بوريقاتي كثيرًا، ذكرت زاهرة لي أنك تزينين شعرك الداكن بزهور التوليب الموضوعة على المظروف من الخارج، فامتنعت من وضعها لك، أخبريني ما فائدة أن نزين الجمال بالجمال!

أنت فاتنة كليلة النجوم حلت بسمائها، عشرون نجمة زرقاء يتخللها سبع نجمات تكاد أن تمزج باللون الأحمر غير النجمات المتناثرات ذات اللون الأخضر، أعتذر منك أنت الأشد جمالًا فكلماتي في العشق تهوي أمامك، تبسمي عل جمال الكون المخبأ يظهر).

جاء إلى ضفة النهر صامتًا، نظرت إليه.

- أنت لست جميلة، بل الأجمل في هذا العالم.

صمت لأن كلماته لم ولن تداوي الجروح المتوالية التي سببها لي، صمت لأنني لو تكلمت حينها لغرق زغفري بقسوتها، لو تكلمت حينها لاحترق عالمه من أجلي، فصمت، أحيانًا يكون الصمت أشد فتكًا من الكلمات، ولكن زغفري ظل يتحدث ولما انتهى قلت له:

- لا تعبث كثيرًا مع أحد، الكل يملك خيباته التي يحملها، الكل مرهق في هذه الحياة، ولا أدري لماذا حين تغلق الحياة بابًا أمامنا، تغلق من بعده جميع الأبواب تباعًا، ولماذا كل الخيبات تأتي في وقت واحد؟ لماذا لا تتجزأ؟ حتى إن الحزن الذي يكون بداخلنا يصبح مترابطًا وقويًا لا نستطيع تجزئته أو إضعافه، وتأتي العاصفة والانحناء يحني ظهورنا، فيتوجب علينا الوقوف، فنقف بهشاشة أمام العاصفة فتقذفنا، ونصبح الضعفاء، مع أنها لو أتت أثناء استقامتنا وقوتنا، لما أسميناها عاصفة، ولشددنا أشرعة طائراتنا الورقية وطرنا بها، لكننا ممزقون قبل أن تحل بنا.

- ماذا تخافين يا زمردة؟

- الوقت أصبح متأخرًا، علينا الرجوع إلى تميم.

- تبسمي بوجهي لعلني أدعك ترحلين.

- ولكن ابتسامتي ستزيد من تشبثك بي.

- إذًا عليك إقناعي بالرحيل.

- لا ترحل..... أعتقد أن قطعة من نفسي سكنت بك، بل خلقت معك.

- أهذا شيء جيد؟!

- بالطبع شيء جيد، جزء مني ينبعث من داخلك، إذا انطفأت لا أنطفئ تمامًا، بعضي يضيء بك، وإن غبت لا أغيب مطلقًا، بعضي حاضر معك.... والأجمل من ذلك أني إن تهت يومًا ستبحث عني وتعيدني فجزء مني ممزوج بجزء منك، فعدني يا زغفري بالبحث عني متى غبت، أكنت ضائعة أو راحلة، ولا تسكت صوتي بداخلك.

- أعتذر لك كوني لا أستطيع أن أقطع لك وعدًا، أعتذر لك لأني حمل يحنيك، لو كنت أثناء استقامتي وقوتي لقطعته، وأعتذر لك من قبح اعتذاراتي.

- أتدري ماذا يخيفني يا زغفري؟

- ماذا؟

- أخاف الفقد، أخاف الضياع، الرحيل والغياب مختبئان لي، ما إن أحببت شيئًا، سلب مني، رحل عني، لم أستطع تخبئتك عن مخاوفي.

❦ ❦ ❦

آمن زغفري أنه الحمل الأثقل علي، لم يكن لزغفري قانون في الحب يقيمه، لم يكن يحبني بالشكل الذي تمنيته، لذلك أراد أن أبطش أنا به، وأني من أزيحه عني، لم يكن على قدر من التفكير بأن يرفع معي بدلًا من أن يسقط مني، فزيف إلى زاهرة أني أريد الرحيل فأتت إلي تسألني:

- وإن رحلت ما لمتك، لأن الأمر تجاوز.

- أنا لا أحب زغفري، ولكنني أخشى أن يكون تعيسًا، يرهقني كونه متعبًا، إن حل به مرض مرضت، وإن أصابه شفاء برئت، أخشى عليه من نفسه، أخاف عليه من الشتاء والصيف، أيمكنني انتشاله من العالم وإدخاله بقلبي؟!

❦ ❦ ❦

فكرت كثيرًا يا زغفري في قراري بالبقاء، فوجدت أنه لا يوجد أسوأ من الرحيل لذلك سأبقى، بأكثر صراحة، لن أرحل، لأن عقلي لم يتحمل فكرة رحيلي، ولم يعد لدي سوى البقاء لذلك سأبقى، ولكن كان عليك أن تقدر ذلك.

بعد موت أبي خرجت من تميم فارةً من زغفري، كان عليه أن يشعر بخزيي منه، كان عليه أن يشعر أنني إن أفلته من إحدى يدي أمسكته بالأخرى، كان عليه أن لا يستسلم لأنقاض الماضي المغطى بها، كان عليه أن يشعر بي أنا، ويشعر أن العواصف قد تحل علي، علينا أن نحترم أن روحًا ما أحببتنا في هذه الأرض.

وماذا إن شعر بي بعد فوات الوقت، عندما لحق زغفري بالقافلة، وكأنه بخروجه واتباعي محو ذنوبه تجاهي، كنت أريد ولو أمرًا يسيرًا للعودة إليه، أريد أن أعود، أنا التي أريد ذلك، ولكن كان لزامًا عليه أن يطلب هو ذلك.

عندما أتى هو إلي وعدني أن لا يدعني أرحل، قطع على نفسه كل العهود وأوثقها بالمواثيق، ولما أتى شعرت أنني أقوى من أي وقت مضى، ولكن العاصفة كانت أشد.

هوجمنا ليلًا واختبأنا بالوادي، رمينا بالسهام ذات النصول الحادة، ما إن أصابت أحدنا قتلته على الفور، وهلة سقوط السهام كان زغفري الأشد إمساكًا بي وأنا الأشد تمسكًا بأمي، نظرت إليه، الغضب يتخلل عينيه، كان يصيح باللصوص: عليكم اللعنة. ثم ينظر إلي، كنت الأشد خوفًا بالوادي، شعرت بالرحيل والفقد يداهماني، وما إن استقرت السهام أصبحنا فاقدين، نجت عائلتي، نجا زغفري وصفوان، وفقدت الأقربين، فقدت الجار والعم، ولكن الناجين أقسموا على دفن موتاهم، خرجت مع أخويّ وزغفري وصفوان، كدت أختنق في الوادي.

ولكنها كانت الفكرة الأكثر بؤسًا، القتلة كانوا بالخارج، اجتزنا مسافة من الوادي بنجاح، أرادوا إشغال اللصوص عن الناجين، فانطلقوا باتجاهات مختلفة، الخطة نجحت على حد اعتقادي، تركني زغفري أحتمي بصخرة كبيرة، لكنها لم تحصني من نظر أحد اللصوص، فانطلقت أعدو وضيعت طريق العودة، تهت ليلتين ونهارًا حتى تعثرت في بئر قديمة، انزلقت بداخلها وظللت للسماء ناظرة.

الليلة الأولى، كنت ذاكرة ما حدث بالتفصيل، ثم سحبني النوم وحين استيقظت، أصبحت أقل استذكارًا للأسماء، علمت أن ذاكرتي هي الأخرى راحلة عني، أنا لم أتمسك بها مطلقًا، أخذت ورقة كنت أحتفظ بها وريشتي، وبدأت أكتب بأنامل مرتعشة، ذكرت عائلتي تحدثت عنهم، شعرت أننا كنا رائعين للغاية، والربع الثاني من الورقة تركتها لزغفري وحده، الجزء التالي ذكرت ما حدث لنا وعن الغدر الذي طالنا وتركت الربع الأخير فارغًا.

في نهار الليلة الثالثة لي، استيقظت أذكر قليل القليل عني، بدأت أقرأ الورقة التي وضعتها بيدي، خفت أن أنسى أني كتبتها ثم أبدأ بالبكاء والموت مرة أخرى، ثم إن الله منحني فرصةً لأبدأ من جديد لماذا أضيعها، قررت تمزيق الجزء المكتوب من الورقة، كتبت الجزء الفارغ، كنت أريد ذكر تفاصيل أكثر عن زغفري وعائلتي ولكن ذاكرتي انتهت وجف حبر ريشتي.

الجزء الأعلى من الورقة دفنته بداخل الرمال، كانت اللحظة الأصعب، ولكن كان محالًا تغيير ما حدث، وكان عزائي الوحيد أني سأنسى تلك اللحظة.

حينما استيقظت لم أعلم أي يوم يكون، لم ينتابني فضول لأنزع الستار وأدقق إن كانت الشمس ما زالت مشرقة أم غابت، حتى الطعام المرصوص على المائدة، لا أدري إن كان أعد لي ومن أعده.

وذات لحظة اقتربت من الشرفة بجوار خزانة لا أعلم لماذا تم اقتناؤها ومن اقتناها، وضعت الوشاح على وجهي وانطلقت خارج المنزل وازداد ركضي، فلا أحد خلفي أهرب منه ولا أحد أمامي ألحق به.

وكأن صخرة شردت من بين الجبال لأتعثر بها، شيء ما يدفعني للنهوض ورغم جرح ساقي اليسرى شيء أقوى يدفعني لأركض، لم أتيقظ لسقوط وشاح وجهي، فعند كل عثرة نفقد شيئًا.

استوقفني رجل..... لا أدري لماذا بكيت، كنت أبكي اللاشيء، وجدت البكاء يبكيني فبكيت لأجل البكاء وبكى البكاء من أجلي.

رجل خمسيني العمر أمسك بيدي، قبلها وأعادني إلى المنزل الذي تركته وخرجت هائمةً أبحث عنه.

دخلت المنزل برفقته، لم نتحدث في طريق العودة، اكتفيت بالنظر في عينيه، وانزلقت روحي بداخله، رغم تمسكي الجيد بالخارج.

❦❦❦

- أنا عمران وهذه زوجتي صالحة.

- أين أنا؟

- نسكن على حدود بلدة زهران.

- كيف وجدتني؟

- في البئر القديمة بجانب مزرعتي، وجدتك منذ ليلتين، كيف وصلت هناك؟

نظرت إليه والذهول يملأني.

- دل سؤالك يا عزيزتي على أنك تحملين بعض الأجوبة لي.

- لا.

أعطاني السيد ورقة أحملها وريشتي، الورقة ممزقة، يبدو أنا من مزقها لكني لا أدري ما سر فعلتي، الورقة تحمل أوصاف شخص ما، يبدو أنني كنت في تلك اللحظة وأنا أخطها أعاني من صعوبة عالية في التذكر، لم أستطع تحديد ملامحه جيدًا لأذكرها، وتاه مسماه بداخلي، الورقة محددة للغاية..

(يبدو أن ذاكرتي تتخلى عني، تذكري دائمًا أنك أحببت رجلًا أقسم لك أنه يبحث عنك الآن، تمنيت أنني أجيد وصفه، ستعرفينه جيدًا بمجرد رؤيته، حباه الله عينين لو أخفيت خلف أسدال العالم ستعرفينها، لا تخافي مطلقًا وإن فقدت نفسك هو يحمل جزءًا مشتعلًا منك بداخله، ابحثي عنه وتذكري دائمًا أن ذاكرة العشق خالدة، أنت تؤمنين بهذا).

- ريحانة.

نظرت باتجاهه بائسة لا أفهم ما يقول.

- أسميتك ريحانة.

ابتسمت، شعرت بالطمأنينة كوني امتلكت اسمًا.

مكثت عامًا مع عائلة السيد عمران، العائلة ليست سوى السيدة صالحة، السيدان لم ينجبا فأورثاني حياتهما كلها، أصبحنا أشبه بعائلة مكتملة، تقول السيدة صالحة دائمًا أن السعادة مرافقة لي وما إن جئت إلى منزلهما حلت عليهما، كان هذا بالنسبة إليهما، أما بالنسبة لي لم أعد أهتم بالأشياء من حولي، لم أعد أبالي بشيء مطلقًا، أنوار المدينة تزعجني فأحببت البرية.

حتى الحشرات التي كنت أخاف منها كثيرًا ما عادت تقلقني، قد تصل إلى نقطة أنك لا تريد، لا تستطيع، لن تفعل، تتخلى، تسقط.

❦❦❦

في ليلة مضيئة انتشلتني السيدة صالحة من تحديقي بالقمر:

- ريحانتي.

- هل تدركين سر جمال القمر بالنسبة لي سيدة صالحة؟ القمر لا يكمن جماله في قربه من الأرض، ولا كونه يضيء وسط العتمة، ولا أن القمر يجمع بين ناظريه في كل مكان، بل أن القمر حين يكتمل يشبه شيئًا ما أحببته، ولكن قمر هذه الليلة يتوارى في العتمة.

- القمر لا يختبئ، القمر حتى لا يغادرنا مطلقًا، وجوده محقق ليلًا ونهارًا، فعدم رؤيتك للقمر؛ أغيوم اعتلته، أو ضوء شمس فاق نوره فهذا شيء لا ينفي وجوده، ولكني عزيزتي لم أسألك مطلقًا عن هذا الخاتم المعلق برقبتك منذ وصولك، أتذكرين شيئًا عنه؟

- نعم أذكر ليلة البئر جيدًا، في تلك الليلة نزل إلي رجل ادعى أنه سيخرجني من البئر، اقترب، كانت له أعين خائنة، كان ينظر باتجاه سلسلة عنقي، ماسة خاتمي، اقترب وكدت أموت خوفًا، نظرت للسماء، شعرت بالله، في تلك اللحظة أيقنت أن الله سينجيني رغم هلاكي المؤكد.

- هل جاء عمران في تلك الليلة؟

- لا، عندما تستنجدين بالله وتوقنين بهذا، الله يتكفل بك، الخاتم سقط من الرجل، الشمس كانت مشرقة حين وجدني أبي عمران.

وها أنا اليوم أقف متحسرةً على زغفري وفعلته، التقيت صفوان وعلمت أنه اعتقد أني تخليت عنه، كيف يصدق أني أراه متجاهلة، يكون ظنه كاذبًا حين يظن بي أنا التي بحثت عنه في وقت لم أكن أذكره، فقدت ذاكرتي ولم أفقده، أيظن بي أنا التي تذكرت نفسها حين نظرت بعينيه، زغفري هو الحب إذا أحببت وهو العشق ما حييت، هل الخوف من معرفتك ما يؤلمك يدفعك لتركه؟ حذرتك من هذا يا زغفري كثيرًا، كيف لم أثبت لك بعد كل هذا أني لا أتخلى عنك، متى ستؤمن بأن حبي لك حب يليق بي وبك، أقف اليوم متأسفةً لي ولك على ما آلت إليه الأمور.

كتبت رسالة وبعثتها مع صفوان، علينا أن نجعل الخوف يشد عضدنا بدل من أن يكسره، فخوفه من فقدي دفعه للهرب، وخوفي من فقده دفعني للبحث عنه، الخوف من الفقد يدفعنا لفعل ما لا طاقة لنا به.

{زغردي}

(تمسك بيد لا تفلتك فإن سقطت قل ارتطامك بالأرض)

ماذا إن كنت تعدو في السباق، وتكتشف قرب انتهائه أنك تعدو في الاتجاه الخاطئ، ستغير الاتجاه بشكل مفاجئ وتركض في الاتجاه الصحيح، لكن دون فائدة، لأن الوقت سينتهي قبل أن تصل، وإن كنت قد أصلحت الاتجاه، ولكن ماذا إن لم ينته الوقت واستنفدت ما بداخلك أنت؟! كأن يكون الوقت المحبب إليك حين تغفو، أو اللون المحبب إليك وأنت تغمض عينك، ورائحتك المفضلة وأنت تغرق في المياه، ماذا إن انتهى كل ما بداخلك أنت؟ وماذا إن كان كونك في أن لا تكون؟ وهانت عليك العيون، فأصبحت تبلل الوسائد ونزل الدمع إلى التابوت، ولم يبق في عينيك سوى الغيوم؟

ماذا إن كانت من سيئاتك أنك رجل لا تفعل إلا ما تشعر به، فلن تفعل لأن شعورك قد مات مبكرًا.

هل يستطيع الإنسان أن يحب شيئًا واحدًا في شخصين اثنين، كأن يشغف قلبك بعين امرأة، وتستوقفك عين أخرى، ما تحبه

بصدق بأحدهم يحرم عليك في الجميع، فماذا إن أحببت شخصًا وأشغفت بكل ما خلق فيه، فحرمت الأرض عليك كل ما فيها.

الخيبات والصدمات التي تتعرض لها إما أن تشفق على نفسك كثيرًا أو تكرهها، ولكنني كنت أشفق عليها حتى إنني قررت المغادرة، لا أدري أي طريق سأسلك؟ وأي بلدة سآوي بها؟ وربما وأنا في طريقي أكره نفسي وأقتلها، في الحقيقة لم أخطط لأي خطة مستقبلية سأقوم بها.

الموت للأشقياء والبؤساء حالنا، الموت لنا، أعي الموت الحقيقي، ليس أن يموت كل ما فينا ويبقى الألم، لا، أن يموت الألم بكل ما فينا.

تجاوزت سهول ظهران، الطبيعة موحشة للغاية، حتى الزهور مغلقة يبدو أنها ماتت، وحين زاد ظمأي رحت أبحث عن ماء، السهل جاف، مع أن الماء بلل ثيابي، فيبدو أن رؤيتنا للأشياء من حولنا، هي انعكاس لما نحمله بقلوبنا.

كيف علينا أن نبدأ من جديد؟ بل كيف تكون البدايات؟ بل السؤال الأمثل، كيف علينا أن نتجاوز ما يحدث لنا، مع العلم أن التجاوز لا يكون بالنسيان، تلك الخدعة التي نرتكبها مع عقولنا، ننتظر مرور الوقت كي ننسى، لأننا ما استطعنا أن نتجاوز.

ولكن ما يؤلمنا لا يزول، بل يترسب بداخلنا متيقظًا مع كل وقت يعصف بنا، كيف يمكننا أن ننهي الأشياء بشكل منطقي، بشكل نهائي، بلا مجال لعودتها أو وجودها بشكل مخفي بنا، كيف يمكن القضاء عليها بشكل نهائي؟ دائمًا الوقت هو الحل الأمثل، أن ننسى، أن نتجاهل، أن لا نفكر لأن التفكير سيظهر لنا كم خسرنا، الوقت هو الحيلة الأفضل لفعل ذلك.

بعد خروجي بعدة أيام من زهران، أرتحل إلى أرض لا أعرفها، أرتحل تاركًا همي ليلحقني، ويبدو أن الارتحال هو الحيلة الأخرى التي أرتكبها، كأن يكون الألم أشد من أن تشعر به، سكنت الصحراء وحدي، لم أعد أصلح للتعايش مع الآخرين، ولكن أبى العالم أن يتركني، رجل مثلي يرتحل في الصحراء، أعتقد أنه يبحث عن شيء ما، اهتدى إلي بالشعلة الصغيرة التي أشعلها أمام خيمتي، اقترب من خيمتي:

- سلام الله عليك.

- وعليك السلام.

- سيدي، خيماتنا تبعد عنك ساعات، اقترح سيدي أن تمضي الليل معنا.

ذهبت مع الرجل إلى خيامهم، كأنهم قافلة، يبيتون في الصحراء، ولكن مكوثهم في هذا المكان يبدو طويلًا، سيدهم رحب بقدومي إليهم وسألني:

- أمار بالصحراء؟ أم ماكث بها؟ سيد....

- زغفري، اسمي زغفري، أرتحل لا وجهة تريحني، أبحث عن طريق للسير فيه.

- نمكث هنا منذ أسبوع، من بلدة أيرين، أضللت الطريق؟

- لا، كان الطريق واضحًا فتهت عنه.

كان الرجل شديد الذكاء، حتى إنه فهم ما أخفيته من حديثي.

- إن ضيعك الطريق، سيجدك آخر.

فقاطعته:

- وكيف إن أدميت قدمي، وعجزت أن أسير.

- تجاوز.

- كيف يمكن أن نتجاوز؟

- يجب أن نتجاوز الأشخاص أولًا، وإذا كان علينا تجاوزهم وجب أن نضعهم في الإناء الذي يليق بهم، وجب أن ننظر

إليهم متفردين بهيئاتهم دون ذلك الانعكاس الذي نضيفه لهم، أن نراهم كما هم وليس كما اعتقدنا كونهم، الوضع يتطلب أن تكون أقوى من أي وقت مضى.

- وكيف تكون القوة في موضع الضعف؟

- تحزن كأنك لن تفرح مرة أخرى، تحزن على الوقت المهدر، احزن على السراب الذي كنت تختزن ماءه لوقت الجفاف، احزن على النظرة الصادقة التي أهدرت، احزن على الخداع الذي استنزفت به، في الوقت الذي تتجاوز فيه لن تجد للحزن معنى.

- ماذا إن كان يجب أن يتجاوزك الآخرون، وجودي في غير موضعه، كأن تشرق الشمس ولم تستيقظ ويأتي الليل وأنت متيقظ.

- لا تحمل نفسك أخطاء غيرك.

- كأن تفتح لك الحياة بابها، هي من أقسو عليها فتحن علي، أخطئ فترحم، أعرض فتأتي، كانت تتبع خطاي، فلما أظلم الكون تتبعت نبض فؤادي واتبعتني، ما تركتني وما خلفتني.

ظهر الغضب بعينيه، ثم قال:

- عليها أن تتجاوزك.

نظرت إليه أتساءل فأكمل:

- أتدري عن سبب تواجدنا، أبحث عن (فرات)، ضاعت في الصحراء مني، كانت جوادي، ولأنها حملتني فوق ظهرها، ولأني أعلم بصدق حبها، ما فرطت بها.

صمت قليلًا، ثم سألته:

- فإن لم تجدها؟ أو وجدت جسمانها؟

- إن وجدتها حية، لتعلم أنها حملت فارسًا وإن لم تكن، أكرمت جسدها، هي تستحق ذلك، تستحق أن أحبها، عليك أن تستعيد ما تريد، آمن بحلمك وإن جحد به البشر.

عدت إلى ظهران خجولًا من نفسي، أعلم لو أن زمردة ما تركتني وذهبت، أدركت أنني أفكر بنفسي دائمًا، كان علي أن أفكر بها متفردة، رحلت إلى ظهران وكل ما بي مترقب.

ما إن وصلت زهران التقيت صفوان حاملًا رسالتها،

أمسكت بالمظروف خائفًا، أأفتحه؟ سيثور قلبي علي إن طلبت مسامحةً مني بعد زواجها، أتعبث بي؟! رب فهمي لم يصب، وفتحت رسالتها..

(سلامًا على زغفري..

يقال أننا إذا أحببنا نرى كل الوجوه تشبه من نحب، وكأن عيننا لا تبصر إلا وجه من أحببنا وتبقى على العهد، ولكن من هذا الذي يشبهك، أجول في الأرض أبحث بين الوجوه عن وجهك، لا أراك ولا أراهم، وكأن عهدي كان أوثق فعيني لا ترى سواك، فعلتك الأخيرة شعرت بالخزي تجاهها، أشعر أنك تخليت عني بالرغم من أني أقسمت بحبي لك من قبل، خلفتني بالدجى وحدي لأنك لم تستطع تحمل العتمة، فأدنتك ودافعت عنك أمامي فكان لا سبيل لتبرئتك ألسنا مأمورون بالتسامح؟! أخبرتك أنه يجب عليك أن تبالي بالأشياء التي لا تعلمها، أتمنى عودتك بل توجب عليك ذلك. المخلصة زمردة).

بعد قراءتي للمظروف، أسرعت بالعودة بل انطلقت بجوادي تاركًا لجامه، شعرت بكل شيء من حولي، يبدو أنني ما كنت أتنفس، مجرد انقباض وانبساط في صدري، وهذه اللحظة الهواء يتخللني ويذوب بداخلي، حتى بدت الأزهار لي تحمل ألوانًا رائعة، مع أنني اعتقدت أن بلدة ظهران لا تزرع الورود، يبدو أن نظري كان منطويًا لا يرى الكثير من الأشياء، رأيت ينابيع المياه المنهمرة، المياه كانت رائعة، منذ عام تمنيت رؤية المياه والشرب منها، في الواقع إنني لم أكن أشعر ولا أرى ولا أحيا، الحمد لله أنني حييت من جديد.

لم أصل إلى بيت السيد عمران، التقيتها بالطريق، حسناء فائقة الجمال تجملت، لما رأتني بالجوار تبسمت عيناها سماءً لما التقيتها أمطرت، سبحان من خلق الجمال وخلقها، ولما طال عني غيابها أعرضت عيني أن ترى غيرها، نظرت إليها حتى اتسعت عيني علني، أستطيع رؤية جمالها، ثم خاطبتها:

- أيتها الجميلة، كيف حالك؟

- إذا كنت تسأل عن حالي قبل لقياك، كحالك تمامًا، أبحث عن شيء يبحث عني، أما إن كان سؤالك عن حالي حين التقيت بك في السوق فلن أغفر لذاكرتي، لن أغفر لها مطلقًا، أما إن كان سؤالك عن حالي بعدما غادرت ظهران، كان جسدي ينتفض خوفًا، شعرت بالخزي

كونك خلفتني، ولم تكن تعلم أن حبي لك يفوق حبك حبًا، أما إن كان سؤالك عن حالي الآن فهذا سؤال غير منطقي سيد زغفري.

- وما هو السؤال المنطقي يا زمردة؟

- لماذا ذهبت بعيدًا؟ لماذا لم تأت إلي وتسألني؟ لماذا تفضل الابتعاد مع أن الاقتراب يمكنك من رؤية الأمور بشكل جيد؟

- لا أريد أن أقترب، أخاف أن أرى ما لا أطيقه، فعلت ما فعلت فلا تحاكميني بذنب اقترفتيه من قبلي، لماذا فررت من تميم؟

- سكب الماء على الأرض.

- أي ماء تقصدينه يا زمردة؟

- زغفري، كل منا يحمل إناءً به ماء، هذا الماء أشبه بطاقتك، بما تستطيع أن تقاوم، بما تستطيع أن تعطي، كان إناؤك فارغًا، ولما أردت ملأه، زحزحته، فسكب الماء على الأرض، وما انتبهت وإلا وقد فرغ إنائي.

- أكنت باحثةً عمن يملأه؟

- لا، رفعته عل السماء تمطر.

أمسكت يدها وقبلتها، وددت لو أستطيع في تلك اللحظة أن أمتزج بها، وقفت ناظرًا إليها حتى ضحكت متسائلة:

- أمشتاق زغفري؟

- نعم، بي لك شعور لم يستطع البشر ذكره بعد، وكأن روحي ونفسي وطيفي مشتاقون إليك.

- النفس يا زغفري روح العقل، تفكر، تدبر، وقد تمكر، تحكمها ضمائرنا، والطيف هو انعكاس للروح، لا يراه إلا من أحبك، فعندما تحب الأرواح تتلاقى أطيافها، والروح هي التي تحيي هذا الجسد.

قبلت رأسها وأراحتها على كتفي فسألتني:

- بماذا تفكر يا زغفري؟

- أتمنى أن لا تنتهي هذه اللحظة، وأنت؟

- أفكر كيف أمكنك من أن تحصل على عمر أجمل.

فقاطعتها قائلًا:

- أن تبقي

كان السيد عمران وصفوان الذي تعلق به كثيرًا ناظرين إلى النجوم فسألت السيد عمران:

- سيدي، أذكر يوم أن ناولتنا غطاءً في تلك الليلة الباردة، كيف لاحظت وجودنا؟ كيف تنبهت إلى بردنا رغم أني لم أنتبه؟ كيف أمكنك تجاوز ما مر بك، وانتبهت لنا؟

فأجابني:

- انظروا إلى السماء، ماذا ترون؟

فأجبته:

- سماء، ليل، نجمات، ليلة هادئة.

- لا، هذه النجوم ما هي إلا انفجارات وأصوات هائلة، ما يصل إلينا إلا نورها، أي لا تحاول معرفة كل شيء عن أمر ما، وراء كل أمر ما، أمر مخيف، لا تكتشفه، تحلى بالتخطي والتجاوز، المخيف أن لكل عملة وجهين مختلفين، كل وجه لا يشبه الآخر، مختلف تمامًا عنه، حتى أنت لم تكتشف الوجه الآخر لك.

- ومتى قد أكتشفه سيد عمران؟

- خذ قطعة معدنية، واعرف أي وجه هي عليه، واقذفها لأعلى حين تسقط على الأرض أي وجه قد تكون؟

- قد يكون الوجه الذي رأيته وقد يكون الوجه الذي لم أره.

- نعم، قد ترى وجهك الثاني عندما تسقط، قد يظهر السقوط وجهًا جيدًا، وقد يظهر الوجه السيئ منك.

فسأله صفوان:

- كيف نتمكن من البقاء جيدين؟

- لا تسقط، وإن سقطت احرص أن لا ترتطم بالأرض.

فسأله صفوان بتعجب:

- أنستطيع الوقوف باستمرار؟!

فأجبته:

- تمسك بيد لا تفلتك فإن سقطت قل ارتطامك بالأرض.

أخذت الجميع: السيدة صالحة؛ والسيد عمران؛ وصفوان؛ وحبيبتي إلى تميم، الأرض التي ولد بها موطني، والأرض التي يسكنها أوطاني، فكل من يؤمن بك مهما بلغت من الخسارة هو وطن، كل من يوقظ أحلامك عندما تسقط هو وطن، كل من يؤمن بحلمك هو سيد الأوطان، وأمسكت بيد زمردة، ثم نظرت إليها غاضبًا مني، سائمًا ظني، ثائرًا لها على نفسي، أي جحيم قد خلقت منه زمردة!

أرحيل كنت أبغيه حقًا، أم كان قهرًا، خفت وقوفًا أمامها، ونظرةً أهلك بعدها، لو نظرت لي غاضبة، واحتكمت للصخرة يوم تركتها، أنقذت من بالوادي وضيعتها، خشيت السماع وما كانت هي بقائلة. وسئمت سماحًا قد تكون طالبة، لو أنها اتخذت غيري زوجًا، حين ضاقت بالغياب ذرعًا، كما كان الناس لي ناصحين، وبي سئمين، لما تواريت عنهم، حين شق الأمر علي أن أتخذ دونها صاحبة، أي أني بقولهم كنت مفكرًا، ولا يشفع لي خوفي أن أظل بالحياة باحثًا، وينقضي بي العمر ضائعًا، خفت أنا ولم أخفها هي، خفت مخاوفي وظني بها كان أحسن.

فعليك أن تكون قويًا مصمتًا حتى تحمل ذلك الشيء بداخلك، واحذر الثقوب وإن صغر حجمها، ثقب صغير قد يضيع ما ظللت بالعمر جامعًا، تذكر أنك لا تخافهم، أنت تخاف أفعالك، أنت ترهب الإساءات التي تعرضت لها، أنت لا تخاف إلا ما بداخلك أنت.

خلقت مميزًا، مختلفًا، خارقًا، ولكن على أحدهم اكتشاف ذلك، ستقابل نفسك بأحدهم، أكان حبيبًا، أو خليلًا، وقد تكون نبتة، لا ترضى بكونك تحيا، لأنك ما خلقت عاديًا، لا تتنازل بالخوف عن مطامحك، لديك الكثير من المغامرات لم تخضها بعد، آمن بنفسك؛ بحلمك؛ بتلك الفرحة التي تنتظر حدوثها، وانتبه أن الكثير من البشر يمتعهم سقوطك، لأن شعورهم بالنجاح مرتبط بفشل الآخرين من حولهم، من المؤسف أن هؤلاء على مقربة منك، فاحذر، وتذكر أن حزنك سينبت منه فرجة ذات يوم، ابحث عن الحب ولا تخف، أما عن خيباتك، فلا تحدثني عن السلام ما لم تخض معركة.

تمت

زمُرُدة

تركني الجميع. أفلتوا يدي. لا أتذكر مستثنى ليستثنى منهم. حتى الحبل الذي كنت أتعلق به في السماء أفلتُه... سقطت في المقابر بين الموتى وحين عدت للحياة أصبحت ميتًا وسط الأحياء. زرت الحانات حتى أصبحت سكناي وكنت ألملم قطرات الخمر. كان صدى أصواتهم يلاحقني: عليك اللعنة يا زغفري. وكنت أقول لنفسي: مت أيها الفتى لعلك تحيا.